أحمد بهجت

رحلة فى عالم النورسى

كتاب المختار

الشيخ سعيد النورسي

كانت حياته جهادا مستمرا من أجل الإسلام.. وكان يعلم وهو يدخل الميدان أنه سيلقى من العنت والعذاب ما لا يحتمله الرجال وما هو فوق قدرة الطاقة على الاحتمال.

ورغم كل شيء.. فقد دخل مدركا أن طريق الجنة مفروش بالمكاره، بينما طريق النار قد حُفّ بالشهوات.

هذا هو الشيخ سعيد النورسي.. أو بديع الزمان سعيد النورسي كما هو مكتوب في شهادة ميلاده.. أو الأستاذ كما اعتاد تلاميذه أن ينادوه.

ولد سعيد النورسي سنة ١٨٧٦ في تركيا، ومات سنة١٩٦٠.. أي أنه عاش ٨٤ عاما.

لو حسبنا أن الطفولة تستغرق من العمر ١٢ سنة، واستخرجناها من فترة كفاحه، فسوف نقول إنه عاش يجاهد ٧٥ عاما بالتمام والكمال.

وقد أسلمه الجهاد إلى السجن ومكث فيه وفي المنافي التي نفوه فيها ما يقرب من ثلاثين سنة. ويمكن إذن أن نقول إنه جاهد في الحياة الحرة ٤٥ عاما، وجاهد في السجون٣٠ عاما.. ثم استسلم الجسد أخيرا للشيخوخة والموت.

لم يكن سعيد النورسي مجرد صوفي يسلك الطريق نحو الحقيقة ويمر بهذه الأحوال والمقامات التي يمر بها الصوفية.

ولم يكن سعيد النورسي مجرد عالم من علماء الفقه أو التفسير.

إنما كان فوق هذا وذاك مجاهدا ثائرا مصلحا يعمل في خدمة الإسلام.

ورغم كل ما وجه إليه من اتهامات، رغم طول الفترة التي قضاها في السجن أو المنفى، إلا أنه استطاع أن يهز تركيا من أدناها إلى أقصاها، وأن يقذف الرعب في قلوب أعداء الإسلام، وأن يحمل بيده شعلة من النور وسط ظلام الأيام الحالكة.

هذه الشعلة هي "رسائل النور".. وهي رسائل كتبها في أثناء جهاده سواء كان خارج السجن أو داخله، وقد نجحت هذه الرسائل في أن تكون درعا تحمي المسلمين وترد عنهم سهام الكائدين، وسوف نستعرض على امتداد شهر رمضان مواقف من حياته ومن أفكاره.

بطاقة شخصية

كتب في هويته الشخصية

الاسم: سعيد

اللقب: بديع الزمان

اسم الأب: ميرزا

اسم الأم: نورية

مسقط الرأس: قرية نُوْرْس التابعة لقضاء خيزان.. من أعمال ولاية بتليس.. عام الميلاد١٨٧٦ ميلادية

الملة: مسلم

قال عن نفسه: لا انتسب لسلالة معروفة.. شافعي المذهب.. أحد مواطني الدولة العلية العثمانية.

هذه بطاقة الشيخ سعيد النورسي

كما وردت في أوراقه الشخصية.. ترى ما هي نظرة بديع الزمان سعيد النورسي إلى سيرته الذاتية؟

لقد ثبت له بما يشبه اليقين أن أكثر أحداث حياته قد جرت خارجة عن طوق إرادته وتدبيره وشعوره

لقد كان يسير في طريقه من أجل هدف ما.. ولكن هذا الطريق الذي كان يسير فيه.. كان يسير به نحو وجهة أخرى لا علاقة لها بالطريق الأصلي.

إنه يكاد يحس أن الأقدار العليا كانت توجهه نحو اتجاه لم يكن هو يفكر فيه ولا كان يحلم به.

هذا الاتجاه هو كتابة رسائل النور.. وهي رسائل تكشف عن جواهر القرآن وأسراره وإعجازه.

كان القرآن بالنسبة له بحراً ينطوي على كنوز عديدة، ولم يكن يحلم في بداية حياته بأنه سيغوص في هذا البحر ويبدأ في استخراج أسراره وعجائبه.. ولكن هذا ما حدث.

كانت المضايقات التي يتعرض لها من السلطات الرسمية، وكان الظلم الذي يقع على عاتقه يخفيان اليد الرحيمة التي تدفعه دفعا خفيا إلى تركيز النظر في أسرار القرآن، وعدم تشتيت النظر وصرفه هنا وهناك.

يقول الصوفية.. إن الله يسوق الناس بالسياط إلى الجنة!

فهل هذا ما حدث لبديع الزمان؟

بدايته

كانت طفولته أقرب إلى الحزن منها إلى فرح الأطفال ومرحهم، لقد ماتت أمه وهو في التاسعة من عمره، وماتت شقيقاته الثلاث وهو في الخامسة عشرة من عمره، ودفعه فقده لحنان الأم ورقة الأخوات إلى الانغماس في الدراسة والعلم، وكان أبوه صوفيا، معظم معارفه من المشايخ والعلماء، وكانت بداية علمه دراسته للقرآن الكريم.

وقد درس في بداية حياته عامين عند أخيه، وكان عالما، ثم انضم إلى حلقة تدريس الشيخ محمد الجلالي، وكان عالما كبيرا هو الآخر، ثم درس على مجموعة من الشيوخ النابهين في مختلف البلاد والأمصار، وبدا تميزه من طفولته.

كانت له ذاكرة فوتوغرافية، لا يكاد يقرأ صفحة من كتاب حتى تنطبع الصفحة في ذهنه تماما ولا تزايله.

رغم هذا كان خطه رديئا ويحتاج لمن يشرحه ويفسره.. ورغم كل ما نهله من علوم الشريعة، كان يعتبر نفسه نصف أمي، وكان يدرك كلما زاد تحصيله للعلم أنه مازال على شاطئ البحر يلعب بالأصداف والقواقع، وأن ما يجهله هو أكبر بكثير مما يعلمه.

ومع الوقت ارتفع شأنه، وكان يناظر العلماء ويغلبهم بحجته القوية ومنطقه الواضح وعلمه الغزير.

ودعاه أساتذته إلى لبس رداء المشايخ والعلماء فرفض.. وقال لأستاذه الذي دعاه لذلك:

ـ كيف ارتدي ملابس العلماء وأنا مازلت صبيا.. إنني لم ابلغ الحلم بعد(كان في الرابعة عشرة من عمره).. أرجو إعفائي من ارتداء زي العلماء.

كان رغم صباه يدرك ما يدركه الحكماء ويعرف أن من التطاول على العلم أن يرتدي المرء ملابس العلماء وهو مازال يقف على الشاطئ، ولم يفرد أشرعته بعد ويبحر في أعماق العلم.

ولعل تواضعه هذا وحكمته في نفس الوقت قد أسلماه معا إلى إدراك أزمة المسلمين والإسلام.

إنه يستغيث ألما من حرقة فؤاده على تدني الأمة، ويقول: آه.. آه.. واسفى.. لقد انخدعنا فتركنا جوهر الإسلام ولبابه وحصرنا النظر في قشوره وظاهره.

كان بديع الزمان في الخامسة عشرة من عمره ، وكان يتمتع بقوة العقل وسداد الحجة ،فضلا عن إفحامه معظم العلماء في عصره وهو في هذه السن المبكرة.

كان بديع الزمان في مدينة بتليس حين طرق سمعه عن وجود سوء تفاهم بين الشيخ محمد أمين أفندي وشيوخ خيزان ،و قال بديع الزمان . تعليقا عما سمعه . إنه يريد تحرير المسلمين من مغبة الاختلاف والغيبة التي لا تليق بهم ويبدو أن كلامه أزعج الطرفين، فشكوه إلى الشيخ محمد أمين أفندي الذي قال باستهانة انه مازال صبيا وليس أهلا للخطاب أو العتاب وبلغت هذه العبارة سمع بديع الزمان.. وكان لا يحتمل أدني من هذا الكلام ، وتوجه على الفور إلى مجلس الشيخ، وقبّل يده وقال له أمام الحاضرين :

سيدي الشيخ.. أرجو أن تتفضل بامتحاني ،فإنني على استعداد لأن اثبت أنني أهل للخطاب.. وأعد الشيخ أمين أفندي ستة عشر سؤالاً من أعقد المسائل في مختلف العلوم ووجهها إلى بديع الزمان وأجاب عنها بديع الزمان إجابة صحيحة ، بعدها ذهب إلى مسجد القرية حيث وعظ الناس وتحدث إليهم. وانقسم أهالي المدينة قسمين، قسم يؤيد بديع الزمان وقسم يؤيد الشيخ محمد أمين أفندي.. وخشي حاكم المدينة من وقوع احتكاك بين الجماعتين، فأصدر أمره بنفي بديع الزمان من المدينة إلى مدينة شيروان..

وقدر الله أن تفوت بديع الزمان صلاة الفجر ذات يوم، فأعلن خصومه في المدينة أن الشيخ سعيد قد ترك الصلاة، وحين سُئل لماذا يتكلم الناس هذا الكلام؟

قال:لا يشيع أمر لا أساس له بين الناس بهذه السرعة، والخطأ مني، وقد عوقبت به بعقوبتين، أولاها عتاب الله سبحانه لسهوي عن صلاة الفجر والأخرى كلام الناس عليّ. يريد الشيخ سعيد أن يقول إنني أخطأت حين غضبت لنفسي، ودافعت عنها وانتقمت لها، والأصل في الداعية أن ينظر إلى الله ومصالح الخلق ولا يلتفت لنفسه ولا يغضب لها.. إذا المفروض أن يغضب للحق وحده.

فهمه للحب

إذا كان التصوف هو تصفية القلب لله، فقد كان سعيد النورسي صوفيا بالفطرة، وإذا كان التصوف هو ان تهب كلك لمن أحببت(أي لله) فلا يتبقى لك منك شيء(لنفسك)، فقد كان سعيد النورسي صوفيا أيضا. ولكن سعيد النورسي بكل مواهبه المتعددة لم يكن مجرد صوفي، ولم يكن شيخا لطريقة من الطرق التي توصل إلى الحقيقة.

كانت أحلام الشيخ سعيد اكبر من أحلام مشايخ الطرق، ورغم أنه تربي وسط جو من العلماء ومشايخ الطرق الصوفية، ورغم أنه التحق ببعض هذه الطرق في صباه وشبابه، إلا أنه ظل بفكره وعمله شيئا متفردا عنهم.

نضرب مثالا على ذلك.. تشيع بين الصوفيين كلمة تقول:

. على المريد أن يكون بين يدي شيخه كالميت بين يدي غاسله.

وهذا يعني أن على المريد أن يحب شيخه ويطيعه بلا سؤال وبلا نقاش، وأن يتحول بين يديه إلى إنسان بلا إرادة، و أحيانا يطيع المريد شيخه اكثر مما يطيع أوامر الشريعة، و أحيانا يحبه أكثر مما يحب النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا ما لم يكن يستطيعه صاحبنا الشيخ سعيد.

دار حوار بين سعيد النورسي وشقيقه الأكبر عبد الله ذات يوم، كان الأخ الأكبر من مريدي الشيخ ضياء الدين وهو من الأولياء الصالحين..وأهل الطرق الصوفية لا يرون بأسا من الإفراط في حب مرشديهم أو شيوخهم، والمبالغة في حسن الظن بهم، بل يرضون بهذا الإفراط والمبالغة.

قال عبد الله الأخ الأكبر لشقيقه سعيد:

–إن الشيخ ضياء الدين على علم واسع جدا واطلاع على ما يجري في الكون.. بمثل اطلاع القطب الأعظم.. ثم سرد الأخ على شقيقه كثيرا من خوارق الأعمال التي تؤكد علو مقامه.. كل ذلك ليغري سعيد النورسي على الانضمام إليه والارتباط.

قال الشيخ سعيد ردا على شقيقه:

– يا أخي الكريم.. أنت تغلو في مشاعرك، انك تحب الشيخ ضياء الدين الذي تتخيله في ذهنك على صورة قطب أعظم له علم بما يجري في الكون.. ولو رفع عنه الحجاب وبانت حقيقته لزالت محبتك له أو قلت كثيرا.. أما أنا يا أخي الكريم فأحب ضياء الدين كما هو وعلى حقيقته، أما أنت فتحب ضياء الدين الذي في خيالك.

بعيدا عن الغلو

نريد أن نتوقف قليلا أمام فهم سعيد النورسي للحب، نعرف أن الحب جوهر العبادة.

نعرف ويعرف النورسي بدراساته وعلمه أن الحب نسيج أصيل من أنسجة الكون، ولكن الحب . رغم خطر شأنه . يمكن مع الغلو والمبالغة أن يتحول إلى فخ يسقط فيه المرء ويفقد إرادته ولا يستطيع بعد ذلك فكاكا.

ويفرق النورسي بين الحب الذي ينبع من خيالنا ويغذيه الخيال والوهم، والحب الحقيقي الذي يستند إلى معرفة بكنه المحبوب وحقيقته.

لقد قال لأخيه: أنا احب ضياء الدين كما هو على حقيقته، أما أنت فتحب ضياء الدين الذي في خيالك. وهذه التفرقة بين الحب الحقيقي والحب الخيالي تفرقة دقيقة جدا، وهي تستطيع أن تعصم المرء من المفاجآت والآلام التي يمكن أن تصيبه حين يكتشف يوما أن محبوبه ليس كما تصوّره، وانه كان يحب صورة في خياله صورة لا علاقة لها بالواقع.. أو الحقيقة.

ولقد دلف النورسي بعد ذلك لفكرة أخرى.. اعمق وأدق. بعد أن حكي قصته عن الحوار الذي دار بينه وبين أخيه، التفت إلى تلاميذه ومريديه واتباعه ووجه إليهم الخطاب قائلا:

- يا اخوتي. أيها السعداء الذين يضحون بأنفسهم في سبيل الله.. إن مبالغتكم في حسن الظن بشخصي، وإن كان أمرا لا يضركم بالذات، إلا أن أمثالكم ممن ينشدون الحق ويبحثون عن الصدق، ينبغي لهم أن ينظروا إلى الشخص من زاوية خدمته للقرآن الحكيم، ومدى إنجازه لمهامه نحوه. ولو كشف النقاب عني وظهرت أمامكم على حقيقتي التي يشوبها التقصير، فسوف تشفقون عليّ وتتألمون لحالي، ولكي لا تندموا على محبة الاخوة التي تجمع بيننا فلا تربطوا أنفسكم بما تتصورونه من مقامات تضفونها على شخصي الضعيف، وهي فوق حدي بكثير.. أنا لست سوى أخ لكم لا غير، زميلكم في تلقي دروس الإيمان، فلا تنتظروا مني الهمة والمدد، بل أنا المحتاج إلى همتكم ومددكم، لقد أنعم الله علينا بشرف خدمة القرآن، ليكن هذا هدفنا بدلا من الغلو في حسن الظن والتطلع إلى مقامات أعلى من حدودنا وحقيقتنا.

اندفاع الشباب

صحيح أن بديع الزمان سعيد النورسي كان رجلا يتقدم على زمانه، وكان رجلا يسبق زمانه..

رغم اعترافنا بهذه الحقيقة، إلا أن النورسي كان في نهاية الأمر ابنا لعصره..

بمعنى أن شبابه حكمه في الفترات الأولى من جهاده، كما أن شيخوخته كانت تحكمه بما تنطوي عليها من حكمة ونضوج. وفي سن الشباب الثائر الفائر... كان من الطبيعي أن يعرف النورسي اندفاع الشباب.. أو ما نسميه نحن بطيش الشباب، ولعل هذا الاندفاع الطائش وقع له في قصة مصطفى باشا.

تبدأ القصة بحلم شاهده النورسي ذات ليلة.. رأى في المنام أن الشيخ عبد القادر الكيلاني يخاطبه قائلا:

. ملا سعيد.. أذهب إلى رئيس عشيرة ميران مصطفى باشا، وادعه إلى الهداية والإقلاع عن الظلم، وادعه إلى الهداية والرشاد و إقامة الصلاة والأمر بالمعروف، فإذا لم يستجب لك فاقتله.

كان سعيد النورسي شابا في مقتبل الشباب فاندفع ذاهبا إلى عشيرة مصطفى باشا وسأل عن خيمته فدلوه عليها فدخلها وجلس فيها.. لم يكن مصطفى باشا موجودا بها..

بعد قليل دخل الباشا خيمته فقام كل الجالسين فيها احتراما له ماعدا واحدا هو الشيخ سعيد.. لقد ظل جالسا ولم يحرك ساكنا.. وسأل الباشا واحدا من رجاله عن هذا الجالس هناك، فحدثه أنه الشيخ سعيد المشهور.. وكظم الباشا غيظه، ولم يكن يحب العلماء أساسا، وسأل الشيخ سعيد

. لماذا جئت إلينا؟

قال سعيد: جئت لإرشادك إلى الحق، فإما إن تقيم الصلاة و تتخلى عن الظلم أو أقتلك.

لم يحتمل الباشا هذا الكلام، فخرج من الخيمة ليهدئ غضبه ثم عاد إليها وسأله نفس السؤال وكانت الإجابة هي نفس الإجابة السابقة.

وزاد غضب الباشا وكاد يقتله ولكنه آثر إن يجمع له علماء الجزيرة لمناظرته و إقامة الحجة عليه، ولكن سعيد النورسي هزمهم جميعا وأجاب على أسئلتهم، وخسر الباشا رهانه وخضع لما يقوله النورسي كارها..

هذه هي قصة النورسي مع مصطفى باشا، وهي تشير إلى مزاج عصبي واندفاع الشباب عند النورسي، وهو اندفاع لم يتكرر.

مَن المجنون فينا؟

كان سعيد النورسي لا يتوقف عن الحركة في شبابه أو رجولته، وإن كان قد أخلد إلى التأملات وكتابة رسائل النور بعد نضجه، وبسبب نشاطه الذي لا يتوقف في شبابه تعرض لأغرب أنواع المقاومة..

لقد دخل السجن مرات ومرات، ووصلت فترة سجنه ونفيه ثلاثين عاما من عمره الذي وصل إلى الثمانين تقريبا..

لم يكن السجن والنفي وحدهما كافيين لردعه، ومن ثم فقد ادخلوه مستشفي المجانين.. وفي كل مرة، كانت براءته تتضح وتنفتح أبواب السجن أو المنفي أو مستشفي المجانين ويخرج..

قدم يوما عريضة إلى السلطان عبد الحميد الثاني.. وكان يقترح في العريضة إنشاء عدة مدارس للأكراد لنقلهم من طور التخلف إلى طريق التقدم..

ويلاحظ الدارسون لحياة بديع الزمان كراهيته العميقة للعنف، وإيمانه الخالص بالتقدم عن طريق التطور المحسوب خطوة بعد خطوة، وعلى الرغم من أن كل تحركاته كانت لا تتعدى الكلام والفكر فإن السلطات كانت تلجأ إلى العنف فتزج به في السجن أو تنفيه، أو تدخله مستشفي المجانين..

بعد أن قدم عريضة إلى السلطان عبد الحميد وجد نفسه داخل مستشفي المجانين والطبيب يكشف عليه ويسأله الأسئلة التقليدية التي يسألونها للمجانين.

سأله الطبيب: لماذا جئت إلى اسطنبول، وأنت مريض.

قال بديع الزمان: لست أنا المريض، بل الأمة كلها والبلاد.. لقد جئت إلى هنا لأداوي أمراض مدينتي اسطنبول.

كنت قبل ذلك أحسب أن فساد الشرق نابع من تعرض عضو منه للمرض، ولكنني لما شاهدت اسطنبول وجسست نبضها أدركت أن المرض في القلب، وقد سرى منه إلى جميع الجهات... وحاولت العلاج عبثا، ولكنهم أكرموني باتهامي بالجنون...

ومضى يشرح للطبيب حقيقة الداء الذي أصاب الأمة ثم ختم حديثه بقوله:

ـ إذا كانت المداهنة والتملق وضرب المصلحة العامة والتضحية بها من أجل المصلحة الخاصة، إذا كان هذا كله يعد من مقتضى العقل فاشهدوا أني أقدم براءتي من هذا العقل، مفتخرا بالجنون الذي هو أشبه ما يكون بمرتبة من مراتب البراءة...

أسباب التخلف

لماذا توقف رقي المسلمين؟ لماذا انحسر المد الإسلامي؟ وما هي الأسباب التي تقف وراء هذه الأزمة..

هذه هي الأسئلة التي أجاب عنها بديع الزمان سعيد النورسي، بعد أن فكر فيها تفكيرا عميقا.

في البداية تساءل: لماذا لم يتقدم المسلمون إلى المقاعد الأولى في العالم رغم أنهم يحملون الحضارة الأولى في عالمنا؟ لماذا سبقتهم الحضارة الغربية..

يرى النورسي أن أهم سبب في ذلك هو تباين الأفكار واختلاف المشارب والآراء بين أهل المدارس الدينية والزوايا، و أبناء المدرسة الحديثة.

إن أهل المدرسة الدينية يتهمون أهل المدرسة الحديثة بضعف العقيدة، والتأويل، بينما ينظر أبناء المدرسة الحديثة إلى أبناء المدرسة الدينية فيرونهم جامدين متحجرين وغير موثوق بهم لعدم إقبالهم على العلوم الحديثة.. وهذا التباين في الأفكار إلى جوار الاتهامات المتبادلة نجح في هز الأخلاق الإسلامية هزا كان سببا في تأخير المسلمين عن ركب المدينة.

بعد ذلك، يدلف النورسي إلى السبب الثاني الذي عوق انطلاق المسلمين، فيراه كامنا في الوعاظ..

يقول بديع الزمان: لقد استمعت إلى الوعاظ فلم تؤثر في نصائحهم، ولم يحركني وعظهم، فتأملت في السبب.. وأرى أن هناك ثلاثة أسباب:

الأول: أنهم يتناسون الفرق بين الحاضر والماضي..ويحاولون سحب الماضي على الحاضر.. كما انهم يقدمون دعاواهم بغير أدلة كافية.. بينما الزمن الحاضر اكثر حاجة لإيراد الأدلة

الثاني: عدم احترامهم لقانون الأولويات، أو عدم اكتراثهم به. ويعبر النورسي عن هذا بقوله . انهم عند ترغيبهم بأمر ما أو ترهيبهم منه يسقطون قيمة ما هو أهم منه، ويفقدون عندئذ هذا التوازن الدقيق الموجود في الشريعة، أي لا يميزون بين المهم والأهم.

الثالث: البلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ولابد إذن أن يكون الكلام موافقا لحاجات العصر، وكأنهم يسحبون الناس إلى الزمان الغابر، ويحدثونهم بلسان هذا الزمان، وبالتالي تبقي الفجوة قائمة بين المتحدث والمستمع..

هذه بعض الأسباب التي رآها بديع الزمان سببا في أزمة المسلمين وتراجعهم.

مواقف الرجل

حفلت حياة بديع الزمان بمواقف تتسم بالشجاعة التي تصل أحيانا إلى حد المخاطرة بحياته..

أيضا وقعت في حياته مواقف تتسم بالغرابة التي تقترب من حد الفكاهة، وأحيانا كانت المواقف تختلط فلا يعرف المرء كيف يصفها.

كانت السلطات التركية قد حارت في أمره..

لقد جربت معه سيف المعز، فدخل السجن سنوات، وقضى في المنفي سنوات..

ووصل الحد بهم إلى اعتباره مجنونا وإرساله إلى مستشفي المجانين، وجلس الأطباء يمتحنونه..

كان رئيس الأطباء الذي يمتحنه رجلا نزيها ولا علاقة له بالسلطات، ومن هنا كتب في تقريره عن النورسي يقول:

ـ لا يوجد بين القادمين إلى اسطنبول رجل في ذكائه أو فطنته، انه فريد عصره ونادرة أيامه..

كان واضحا أن الطبيب لا يعرف الآثار التي سوف تترتب على تقريره.. أخيرا وصل التقرير إلى سراي الخليفة العثماني، ووقعت الدهشة والهلع في صفوف المسئولين في القصر..

وصدر أمر مستعجل بإخراج سعيد النورسي من المستشفي.. ونبتت في نفوس المسئولين فكرة شرائه أو رشوته، لقد هددوه بسيف المعز، فماذا لو جربوا ذهب المعز بدلا من السيف وصدر قرار إداري سلطاني بمنحه مرتبا خياليا، وكان هذا المرتب يبدأ من ألف قرش (عشرة جنيهات وهي تساوي أيامها ثروة)..

وعهد إلى وزير الأمن شفيق باشا ان يقدم له هذه المكرمة السلطانية واستدعاه شفيق باشا وقال له:

– إن السلطان يسلم عليك، وقد أمر بصرف مرتب شهري لك يبدأ بألف قرش وسيرتفع إلى ثلاثين ليره ذهبية..

قال النورسي: أنا لست متسول مرتب وان بلغ ألف ليرة، إنكم تحاولون رشوتي.

قال شفيق باشا: أنت تردّ الإرادة السلطانية وهي إرادة لا ترد.

قال النورسي: إنني أردّها لكي يستدعيني السلطان فأجد الفرصة لقول الحق عنده.

قال شفيق باشا: ستكون العواقب وخيمة..

قال النورسي: لو تم إعدامي فسوف ارقد في قلب الأمة.. لقد حضرت إلى اسطنبول ووضعت روحي في كفي..

وهكذا فشل ذهب المعز، كما فشل سيفه في شرائه أو ترويعه.

موقفه من الاستبداد

كان لبديع الزمان سعيد النورسي رأي واضح في الاستبداد.. كتب يقول: الاستبداد هو التحكم

هو المعاملة العشوائية

هو الجبر المستند إلى القوة

هو الرأي الواحد

هو الباب المفتوح للمفاسد

هو أساس الظلم

هو محو الإنسانية، وهو الذي دحرج الإنسان الذي كرمه الله إلى أسفل سافلين، وهو الذي أوقع العالم الإسلامي في التخلف والذل، وهو الذي أيقظ الأغراض والخصومات، وهو السم الذي سرى مرضه القاتل في أعصاب العالم الإسلامي.

كان هذا تعريفه للاستبداد..

لقد قدم صورا ترسمه بشكل واضح.. وقال في نهاية تعريفه:

إن الاستبداد لا علاقة له بالشريعة الغراء، هي أبعد شيء عنه، كما أنه أبعد شيء عنها.

لقد جاءت الشريعة لهداية العالم والوقوف ضد الظلم والاستبداد..

هذا هو رأي الشيخ سعيد في كنه الاستبداد وأثره على الشعوب والمجتمعات، وقد حارب الرجل استبداد البطانة التي أحاطت بالسلطان عبد الحميد، كما حارب استبداد مصطفى كمال اتاتورك بعد إلغائه الخلافة ووثوبه على الحكم.

كان رأيه أن أخطر سبب في تراجع الأمة الإسلامية، أن حكامها استبدوا برأيهم فيها.. وأوردوها موارد التهلكة..

ولقد حارب النورسي حتى أعلنت المشروطية، وهي النظام البرلماني في الدولة العثمانية، وبموجب هذا النظام أصبحت الوزارة مسئولة أمام البرلمان وليس أمام السلطان، كما أن صلاحية تشريع القوانين أصبحت من اختصاص البرلمان، وقد أعلن السلطان عبد الحميد المشروطية مرتين: مرة عند بداية حكمه وأخرى سنة١٩٠٨، وقد رحب النورسي بهذا النظام بوصفه تطبيقا لقوله تعالى: (وشاورهم في الأمر) (وأمرهم شوري بينهم).

الحرية والشريعة

تشيع في أوساط المثقفين فكرة مؤداها أن بديع الزمان سعيد النورسي قد هاجم السلطان عبد الحميد الثاني، ولم يقدر ذلك السلطان المفترى عليه حق قدره..

وقد جاءت هذه الشبهة من الخطب التي ألقاها سعيد النورسي في بداية عهد الحرية وعودة الحياة البرلمانية أو ما يسمونه في تركيا بالمشروطية..

لقد تحدث النورسي طويلا عن الحرية والديمقراطية، وكان قادرا على التفرقة بين شخص السلطان عبد الحميد، وأشخاص الحاشية التي تحيط به والتي كانت تحذره من إطلاق العنان للحرية والديمقراطية، ولا تسمح له بأن يرى من البلد الذي يحكمه إلا الحيز الذي تسمح به الحاشية أيضا. كان النورسي مدركا أن الحرية . بغير ضوابط يمكن أن تنقلب إلى الفوضى.

ما هي الضوابط التي اقترحها المجاهد الكبير سعيد النورسي ؟ إنها الشريعة.. كان رأيه شديد الوضوح في هذه الجزئية، قال أكثر من مرة: إذا لم تنضبط الحرية بالشريعة، فإن ما حطمتموه من استبداد ضعيف اضطر إليه بشر، سوف يتحول إلى استبداد عظيم يوزع على

الناس كافة وسيغدو كل شخص مستبدا بذاته، وعندئذ يولد الاستبداد المطلق، وينقلب استبداد الواحد إلى استبداد الألوف..بمعني ان الحرية ستموت، ويولد استبداد مطلق.. وقد ركز النورسي على ان الحرية، اذا لم تخضع لتربية الشريعة الإسلامية، فسوف تموت ويولد بدلا منها استبداد مطلق.

ان أوروبا تظن ان الشريعة هي منبع الاستبداد وسببه، وهذا ظن خاطئ، وهو ظن يقول عنه النورسي:

لقد تألمت كثيرا من أعماق قلبي على ظنهم السيئ بالشريعة، وان كان الجهل والتعصب المتفشيان فينا هما اللذين عاونا أوروبا على هذا الظن الخاطئ السيئ.

إن مفتاح حظ الإسلام وسعده ورقيه موجود في الشورى التي في الحياة البرلمانية.. نحن في حاجة إلى الحرية والعدالة والمساواة التي كانت ترفل فيها القرون الأولي للإسلام. وآثار سيدنا عمر بن الخطاب وعلى بن أبي طالب وصلاح الدين الأيوبي خير دليل على هذا الإدعاء.

تجارب الحرب

اشترك الشيخ سعيد النورسي في الحرب العالمية الأولى، وكان دائم الحركة في خط الدفاع الأول، إنه يندفع بجواده يمينا وشمالا في خط الدفاع الأول وهو خط النار المباشر.

وفكر وهو يمضي هكذا انه يمكن أن يستشهد في موقعه هذا وهو يتقدم الجميع، وفي هذا شيء من حب الظهور الذي يجرح الإخلاص.. والإخلاص في الشهادة أساس لا تصلح بدونه.. بعد هذا الخاطر عاد النورسي إلى خندقه مباشرة وانضم إلى زملائه وأحبائه..

وفي هذه الحرب.. عاش مجموعة من التجارب التي كان أبسطها النظر في وجه الموت دون خوف..

من التجارب التي أحزنته في هذه الحرب أن المسودة الأولى لإشارات الإعجاز القرآني قد تمزقت في الحرب..

لقد أصابته أربع قذائف دفعة واحدة، جرح من إحداها وانكسرت ساقه وبقي في الماء والطين منطرحا على ظهره أربعا و ثلاثين ساعة.. منتظرا الموت في كل لحظة، ومحاصرا من قبل العدو. كان هذا الوقت يعد أحلك ساعاته اليائسة وأشدها رهبة، ولعله تذكر وهو في هذا الوضع موقف النبي يونس عليه السلام في جوف الحوت، وراح

يسبح تسبيحة يونس (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين)، وتم إنقاذه من الموت ولكنه وقع في الأسر.. كانت تركيا في حرب مع روسيا فأرسلوه إلى معسكر للأسرى في سيبيريا ..

وذات يوم زار القائد العام لجبهة القفقاس في روسيا المعسكر للتفتيش عليه، وكان الأسرى يقومون له احتراما حين يدخل عليهم، ولكن بديع الزمان ظل جالسا في مكانه..

وتوقف القائد الروسي وسأله: ألا تعرفني؟

قال النورسي (وكان الحوار يدور بينهما بواسطة مترجم): أعرف انك خال القيصر والقائد العام..

عاد القائد يسأله: لماذا لم تقف حين دخلت، هذه إهانة، لماذا قصدت إهانتي؟

قال النورسي: معذرة.. أنا لم أقصد الإهانة، ولم أقصد الإستهانة به.. إنما فعلت ما تأمرني بك عقيدتي.

سأله القائد: ما هي عقيدتك؟

قال النورسي: هي الإسلام.. أنا مسلم.

عاد القائد يسأله: بماذا تأمرك عقيدتك؟

–العزة الدينية

تحدث النورسي أمام القائد الروسي عما تأمره به عقيدته.

قال: إنني عالم مسلم أحمل في قلبي الإيمان، والذي يحمل الإيمان في قلبه أفضل ممن لا يحمله.. ولو أنني قمت لك احتراما لكنت قليل الاحترام لعقيدتي.. ولهذا لم أنهض واقفا حين دخلت..

استمع القائد الروسي لإجابة الأسير وقلب الكلام في ذهنه ثم قال:

. إنه يطلق صفة عدم الإيمان علي، وهذا يعني أنه قد أهانني وأهان جيشي وأهان أمتي والقيصر..شكّلوا على الفور محكمة عسكرية للنظر في استجوابه.

تم تشكيل محكمة عسكرية بناء على أمر القائد الروسي.. وانهمك قادة المعسكر في إنفاذ أوامر الجنرال وكان هو خال القيصر.. وفي نفس الوقت..هرع الضباط الأتراك والألمان والنمساويون إلى بديع الزمان.. قالوا له: ما هذا الذي قلته للقائد الأعلى.. إنهم يشكلون لك الآن محكمة عسكرية.. هل تعرف التهم الموجهة إليك ؟

إنها إهانة الجيش وإهانة قائده الأعلى وإهانة القيصر.. وهذه تهم تكفي للحكم عليك بالموت عدة مرات..الأفضل أن تعتذر في المجلس العسكري، وتطلب العفو.

قال النورسي: أنني راغب في الرحيل إلى الدار الآخرة والمثول بين يدي الله ولقاء الرسول الكريم.. وكل ما أريد جواز سفر للآخرة، ولكنني لا أستطيع أن أعمل بما يخالف إيماني..

انعقدت محكمة سريعة وحكمت عليه بالإعدام، وحضرت مجموعة من الجنود يقودها ضابط روسي لأخذه إلى ساحة الإعدام.. وقال سعيد النورسي للضابط :

اسمحوا لي بعشر دقائق قبل الإعدام لكي أصلي فيها.. وأذن له الضابط الروسي فقام وتوضأ وصلى.. كان يراقبه القائد نيقولا نيقولا فتش، فلما انتهى من صلاته قال له القائد:

ـ أرجو منك المعذرة، كنت أظن أنك قمت بعملك قاصدا إهانتي، ولكنني أدرك الآن أنك تستلهم هذا العمل من إيمانك، وتنفذ ما تأمرك به عقيدتك، وقد أبطلت قرار المحكمة وعفوت عنك.. أرجو معذرتك.. إنك تستحق الإعجاب لشجاعتك.. مرة أخرى أرجو المعذرة..

لا أحد يعلم ماذا دار في نفس القائد الروسي، لقد حرك الله قلبه إعجابا بشجاعة النورسي. والقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن

أحزان الغربة

يقول العارفون بالله: إذا أردت أن تكلم الله فأقم الصلاة، وإذا أردت أن يكلمك الله فاقرأ القرآن.

كان هذا ما يفعله بديع الزمان حين يصيبه الأرق، وتشتد عليه الغربة، ويصغي لخرير نهر الفولجا وهو سجين في روسيا..

كانت الأمطار تبدو له مثل بكاء منهمر للطبيعة، أما صفير الرياح فكان يذكّره بلوعة الفراق..

ورغم انه لم يكن يعد نفسه شيخا بعد، فإنه آمن بعد انخراطه في الحرب العالمية الأولي بأنه صار شيخا..

هي أيام ينطبق عليها سر الآية الكريمة (يوما يجعل الولدان شيبا).. كان عمره يقترب من الأربعين، إلا انه أحس بأنه في الثمانين من عمره.. من فرط ما شاهد من أهوال في هذه الليالي المظلمة الطويلة الحزينة، وفي هذا الجو الغريق في أحزان الغربة، كان الواقع الأليم لا يترك له أي مجال للتفاؤل أو الأمل..

حين أيقن من عجزه وانقطاع رجائه جاءه المدد من القرآن الكريم، وها هو لسانه يردد قول المؤمنين في الكتاب الحكيم: (حسبنا الله ونعم الوكيل).. (حسبنا الله ونعم الوكيل).

إن العبارة تتردد داخله فتغزو غربته ووحدته وضعفه وعجزه وتمنحه ظلالا ندية من الأمن والرضا والأمل.

ويتذكر النورسي أصدقاءه وأحبابه القدامى في بلده، وتطفو في عقله كلمات الشاعر التركي نيازي المصري، وهو شاعر صوفي ولد في تركيا ثم سافر إلى مصر والتحق بالأزهر الشريف فلقب بالمصري.

بعد عودته يقول نيازي المصري في قصيدته:

مررت بأحزان الدنيا وأطلقت جناحي

حلقت في سماء الحرمان

طائرا في شوق.. صارخا في كل لحظة

باحثا عن صديق...

رغم كل هذه المحن وربما بسبب هذه المحن وجد النورسي نفسه يقترب من عتبة الرحمة الإلهية، لقد شفعت له آلامه وأحزانه لدى الحضرة الإلهية.. فوجد نفسه يسجد ويقترب انصياعا للآية الكريمة التي تقول: (كلا لا تطعه واسجد واقترب)

هروب من الأسر

مكث النورسي في الأسر فترة بدت له مثل دهر طويل لا يريد أن يمضي.. كان كل يوم من أيام سجنه يؤكد له أن الحرية قيمة إنسانية عليا، بل وقيمة كونية في نفس الوقت.

إن الطيور التي تقع في الأسر أو الوحوش التي يأسرها الصيادون لا تعيش طويلا بعد أسرها.

أطاع هاتفا داخليا يحدثه أن يخرج من أسره.. وبدأ يخطط للهرب.. واختفى من المعسكر ذات يوم..

خرج في الفترة التي تتغير فيها الحراسة على الأبواب..هناك ثوان بين خروج الحرس القديم ودخول الحرس الجديد..انسل هو من هذه الثغرة وسار..

تحدث بعد ذلك عن خروجه فقال:

مازلت مندهشا كيف استطعت الفرار، لقد مشيت مسافة على قدمي حتى لم اعد أحس بهما، لم اكن ملما باللغة الروسية، وظللت امشي حتى وصلت إلى وارسو في بولندا وفينا في النمسا، وظللت أسير حتى وصلت إلى اسطنبول، لقد وقع كل شي ببساطة ويسر كبيرين حتى أنني أمتلئ بالدهشة حين أتذكر ما حدث كان الأمر أشبه بنزهة على

الأقدام.. ربما كان السير فيها مرهقا، ولكن العناية الإلهية كانت توجه مسيرتي حتى نجوت..

سئل حين وصل إلى اسطنبول.. ألم تخف من الموت؟

قال: حمدا لله أن وفقني لكي أجد الدواء في الداء ذاته، وان أرى النور في الظلمة نفسها، وأن أشعر بالسلوان في الألم والرعب ذاتهما.. لقد نظرت إلى وجه الموت أكثر من مرة.. هذا الوجه الذي يرعب الجميع..

ماذا رأيت؟ رأيت بنور القرآن الكريم أن الوجه الحقيقي للموت– بالنسبة للمؤمن–هو وجه صبوح منور.. أن الموت ليس إعداما نهائيا ولا فراقا أبديا إنما هو تمهيد للحياة الأبدية، وهو إنهاء لأعباء الحياة وراحة وإعفاء، وهو وصال ولقاء مع قافلة الأحباب الذين سبقونا إلى عالم البرزخ، بمثل هذه الحقائق شاهدت وجه الموت المليح الصبوح فلا غرو أنني لم أنظر إليه خائفا وجلا، وإنما نظرت إليه بشيء من الشوق وعرفت يومئذ سرا من أسرار رابطة الموت التي يزاولها أهل الطرق الصوفية.. وأخيرا أليس الموت إيذانا بلقاء الأحبة..محمداً وأصحابه؟

خواطر نفس

كان هناك استقبال رائع عند عودة النورسي من الأسر إلى اسطنبول.. سواء من قبل الخليفة أو شيخ الإسلام أو القائد العام، أو من طلبة العلوم الشرعية. لقد قوبل بحفاوة قال عنها إنها أكثر مما يستحق بكثير.. ورغم كل التكريم الذي وقع له.. كان لسعيد النورسي رأي آخر فيما يجري.

كتب يقول: بعد أن رجعت من الأسر، سيطرت الغفلة عليّ مرة أخرى طوال سنتين من حياتي في اسطنبول.. إن الأجواء السياسية وتياراتها صرفت نظري عن التأمل في نفسي، وأحدثت تشتتا في فكري وذهني.. جلست ذات يوم في مقبرة أبي أيوب الأنصاري رضي الله تعالى عنه، على مرتفع يطل على واد سحيق، مستغرقا في تأمل الآفاق المحيطة باسطنبول..وإذا بي أرى كأن دنياي الخاصة أوشكت على الانقضاء.. وشعرت بخيالي أن الروح تنسل منها انسلالا. ساءلت نفسي....هل الكتابات الموجودة على شواهد هذه القبور هي التي دعتني لهذا الشعور..؟

إن المكان يمتلئ بالموتى وقبورهم، قلت لنفسي إن هذه المقابر التي تحيط بك تضم مائة اسطنبولي.. لقد أفرغت فيها اسطنبول مائة مرة.. لن يستثنيك مَلَك الموت.. أنت راحل مثلهم لا محالة..

غادرت المقبرة وأنا أحمل هذا الخاطر، ودخلت الغرفة الصغيرة في جامع أبي أيوب الأنصاري وكنت أدخلها قبل ذلك مرارا.. قلت لنفسي إنما أنا ضيف، وضيف من ثلاثة أوجه.. إنني ضيف في هذه الغرفة الصغيرة، وأنا ضيف كذلك في اسطنبول، وأيضا أنا ضيف في الدنيا وراحل عنها كذلك.. وعلى المسافر أن يفكر في سبيله ودربه.. كما أنني سأخرج من هذه الغرفة بعد دقائق وأغادرها، فسوف أترك اسطنبول ذات يوم وأغادرها، وسوف أخرج من الدنيا كذلك. خرجت من الغرفة إلى المكان المرتفع نفسه في المقبرة.. بدا لي أن أهالي اسطنبول لا يسيرون على أقدامهم، وإنما هي جنائز تسير محمولة من قوم سيحملهم غيرهم غدا.. وبدت لي الدنيا على حقيقتها في مقبرة أبي أيوب الأنصاري.. إنها لا تساوي جناح بعوضة.

المولد الجديد

يموت الإنسان مرتين.. ويولد مرتين كما يقول الحق تبارك وتعالى على ألسنة الخلائق (ربنا أمتنا اثنتين و أحييتنا اثنتين) الموتة الأولى قبل الميلاد في الدنيا.. كان الإنسان عدما.. لم يكن له وجود إلا في علم الله وكتابه القديم..

ثم يجئ الميلاد في الحياة الدنيا.. هذه هي الحياة الأولى، ثم يجئ الموت في الحياة الدنيا.. وهذه هي الموتة الثانية.

ثم يجئ البعث ويقوم الأموات من رقادهم بعد أن صاروا عظاما وترابا.. وهذه هي الحياة الثانية بعد الحياة الدنيا، او الدار الآخرة كما سماها الله.

يضيف العارفون بالله والصوفية إلى هاتين الحياتين وهاتين الموتتين اكثر من حياة في الدنيا..

انهم يرون ان الإنسان يستطيع في الدنيا ان يولد اكثر من مرة، هذا الميلاد المعنوي اخطر من الميلاد المادي.. لأن الميلاد المعنوي يتصل بالوعي الذي يقود إلى التغيير والرقي.. ويتصل بالقدرة على تبديل السلوك الإنساني والمسار.

ويحس المرء وهو يتتبع حياة بديع الزمان سعيد النورسي ان الشيخ بين عام١٩١٩ إلى عام١٩٢٥ كان يتهيأ لكي يولد من جديد، وكانت هذه الفترة كلها مخاضا لكي يولد سعيد الجديد. ويدلف سعيد القديم إلى أحضان التاريخ وحين يسترجع المرء سيرة سعيد النورسي من بدايتها إلى نهايتها يحس أن الأقدار العليا كانت توجه خطوه في اتجاه محدد.. وليست كل التجارب التي دخلها، وليست كل الخبرات التي نجح في تجميعها، وليس كل الجهاد الذي جاهده إلاّ خطوات نحو الهدف الأعلى من وجوده.. وهو الهدف الذي سيتحدد فيما بعد.. هذا الهدف هو مهمة إنقاذ الإيمان.. لقد حدث في وجدانه تحول عظيم.
ان التصدي لمؤامرات الغرب وكيده، والتصدي للخرافات العالقة بأذهان الناس، والدفاع عن الإسلام وهيبته، كانت خطوطا متوازية في حياته.. ولكن هاهي الخطوط تلتقي في مهمة واحدة هي إنقاذ الإيمان.

الصحوة الروحية

حين رجع سعيد النورسي من الأسر سكن مع ابن أخيه عبد الرحمن في قصر على قمة جاملجة في اسطنبول.. وهذه المنطقة هي أجمل مكان في المدينة..

كان يحيا حياة مثالية من الناحية المادية.. لقد نجا من الأسر، وها هي وسائل النشر مفتوحة له ومتاحة، أيضا كانت الشهرة تحف به وكان الإقبال عليه يملأ حياته.. وكل شيء على ما يرام.. كان المفروض أن يحس بأنه أسعد إنسان في العالم..

ونظر يوما في المرآة فرأى الشيب يغزو شعره ولحيته، وعاودته تلك الصحوة التي مر بها في جامع قوصترما..

راح يتأمل أعماقه.

نظر وفكر في الأشياء التي كان يرتبط بها قلبيا، وكان يظنها محور السعادة الدنيوية..

ما من حالة استعرضها، وما من سبب دقق فيه إلا واكتشف في نهاية الأمر أن السبب مخادع وتافه..

ثم إنه نظر فيما حوله من أسباب سعادة البشر، فوجد الأسباب زائلة والسعادة نفسها على سفر..

ستغادرك كل الأشياء التي تتعلق بها ذات يوم.. لا تكن إذن كالطفل الذي يتعلق بلعبته ويبكي إذا انتزعها أحد من يده.

أسهم في قلقه عدم وفاء نبع من صديق كان يظنه صديق عمر، ولكنه انقلب عليه وبادره بعداء شديد أوقع النورسي في الحيرة..

أهكذا يبلغ عدم الوفاء..

غاص هذا الحادث في قلبه وأحس معه بأنه لا يستطيع أن يطمئن لشيء..

كل ما في الحياة الدنيا إلى فناء وزوال.. العروش والملوك والمال والجاه والبشر أولا وأخيرا..

إن قلبه مشغول بأشياء كثيرة.. وهذا خطأ.. إذ المفروض أن يكون بيتا لا يدخله سوى الله.. أما الأغيار والسوى فيجب عليهم الخروج على الفور..

بغير هذا كله لا نجاة للإنسان.. ولا أمل له في الخلاص.

صراع داخلي

أدرك سعيد النورسي أن الحالة التي يمر بها، وعدم الرضا الذي يحسه عن نفسه، والقلق العنيف الذي يهزه من الداخل..أدرك النورسي أن هذا كله ابتلاء من الله له، هو تجربة جديدة يدخلها خلال تحولاته الداخلية..

وخلال هذه الحالة التي استولت عليه فترة، إذا بحكمة القرآن الحكيم تسعفه، رحمة من الله العلي القدير.

لقد غسلت حكمة القرآن أدران تلك المسائل الفلسفية وطهرت روحه منها..

أحس النورسي أن في داخله صراع هائل..

إن النفس والشيطان يشنان هجوما عنيفا على العقل والقلب، وذلك بفضل ما أخذاه من دروس أهل الضلالة والفلسفة، فبدأت المناظرة واحتدم الصراع بينهما ثم انتهى الأمر بانتصار القلب وفوزه

لقد أفاق النورسي أخيرا، ولكنه أفاق على صبح المشيب، تأمل نفسه فوجدها كل لحظة تتحدر سعيا من قمة الجبل نحو ظلام القبر..

ويستغيث النورسي مرددا أبيات نيازي المصري:

ذهب العمر هباء لم أفز فيه بشيء

ولقد جئت أسير الدرب.. لكن
رحل الركب بعيدا..
وبقيت..
ذلك النائي الغريب
وبكيت..
همت وحدي تائها اطوي الطريق
وبعينيّ ينابيع الدموع
وبصدري حرقة الشوق
حار عقلي..!

ويذهب سعيد النورسي يوما إلى جامع بايزيد في اسطنبول وذلك في شهر رمضان المبارك، وجلس الشيخ القارئ يقرأ آيات الذكر الحكيم.. قرأ قوله تعالى (كل نفس ذائقة الموت) وأحس النورسي أن القارئ يوجه إليه الحديث مباشرة، وأحس النورسي انه يستيقظ من غفلته.

أنواع من الدنيا

يؤمن سعيد النورسي بأن الشباب طاقة هائلة فإذا وضعت هذه الطاقة في موضعها الصحيح ووظفت توظيفا سليما في العبادة والأعمال الصالحة والخير، فإنها تصبح أعظم قوة للتغيير على الأرض واقصر طريق إلى الجنة في الآخرة.

نعم.. إن مرحلة الشباب نفيسة حقا وثمينة للغاية، وهي نعمة إلهية من نعم الله التي لا تعد ولا تحصي..

هذا هو المفروض.. ولكن ما يحدث في الدنيا عادة هو عكس المفروض. إن الشباب إذا لم تصحبه الاستقامة، وترافقه العفة والتقوى، فدونه المهالك الوبيلة..

إنه يتحول إلى طاقة تحطم صاحبها يومئذ وتحطم مقامه في الدنيا وفي العالم الآخر.

ولما كان عهد الشباب لا يخلو من الضرر عند اغلب الناس، فعلى الشيوخ أن يحمدوا الله حمدا كثيرا على نجاتهم من مهالك الشباب وأضراره.. إن لذات الشباب ومباهجه زائلة لا محالة، شأنها في ذلك شأن كل الأشياء الزائلة.

كان النورسي يعلّم الشباب أن يصرفوا شبابهم في العبادة والعلم، وان يستغلوا وقتهم في فعل الخيرات وتغيير الحياة لما هو أفضل..

وكان هو ينظر إلى الدنيا التي عشقها اكثر الناس وغرقوا فيها فرأى بنور القرآن الكريم أن الدنيا ليست واحدة.

إنما هي ثلاثة أنواع من الدنيا.

الأولى: هي الدنيا المتوجهة إلى الأسماء الإلهية الحسنى.. فهي مرآة لها.

والثانية: هي الدنيا المتوجهة نحو الآخرة.. فهي مزرعتها.

والثالثة: هي الدنيا المتوجهة لأرباب الدنيا وأهل الضلالة والغفلة..

وهذه هي دنيا الأغلبية.. وهي التي وصفها القرآن بأنها لعب ولهو..

يحدثنا النورسي انه اكتشف من تأملاته أن كل إنسان في الدنيا له دنياه الخاصة التي تقوم على حياته الشخصية.. أما عن نفسه فلا شك أن له أيضا دنيا خاصة به، وهي كدنيا غيره تنهدم بسرعة.. وراح الرجل يفكر ويتساءل:

ما فائدة هذه الدنيا الخاصة في عمره القصير؟ وما قيمتها إذا لم يذهب عمله فيها إلى التعبد والمعرفة والأعمال الصالحة؟

لوحتان

كان سعيد في الفترة الأولى من حياته، وهي الفترة التي سماها فيما بعد بسعيد القديم، كان يتحرى مسلكا يتفق مع اشتغاله بالفلسفة والعلوم العقلية..

كان لا يقنع ولا يكتفي بالحركة القلبية وحدها، ثم اكتشف ذات يوم ان العقل وحده . بعيدا عن القلب . لا يستطيع أن ينقذه..

وبدأ يحاول التخلص من الأسقام التي أورثته إياها مداومة النظر في كتب الفلاسفة..

ونجح في ذلك.. وخطا خطوته التالية بما سماه توحيد القبلة وكان هذا يعني عنده توحيد المصدر الذي يأخذ عنه.. أي أن الأستاذ الحقيقي هو القرآن وتوحيد القبلة يكون بالأخذ منه والاستمداد منه.

وانعكس هذا على كتابته في رسائل النور كانت كتابته سياحة في المقامات المختلفة، وكان يسعى بقلبه تحت أنظار العقل.. وكان يسعى بعقله في حماية القلب كالإمام الغزالي والإمام الرباني وجلال الدين الرومي..

وأخيرا دخل سعيد القديم إلى التاريخ.. وولد سعيد الجديد.. وصارت رسائل النور طبيبا حاذقا لطلاب الحقيقة، كما أصبحت مفحمة ومسكتة لأهل الإلحاد والضلالة.

كتب في رسائله لوحتين، لوحة تصور حقيقة الدنيا لدى أهل الغفلة ولوحة تصور حقيقتها لدى أهل الهداية..

يقول في لوحة أهل الغفلة:

لا تدعني إلى الدنيا.. فقد جئتها ورأيت الفساد فيها.. وحين صارت الغفلة حجابا وسترت نور الحق، رأيت الموجودات كلها فانية وضارة.. لقد صار العقل عقابا، والبقاء بلاء، والعمر عين الهواء والكمال عين الهباء، والعمل عين الرياء، والأمل عين الألم، والوصال عين الفراق والدواء عين الداء، وانقلبت العلوم أوهاما، وانطوت الحكمة على السقم.

ويقول في لوحته الثانية عن أهل الهداية:

لما زالت الغفلة أبصرت نور الحق عيانا، وإذا الوجود برهان ذاته، والحياة مرآة الحق، وإذا العقل مفتاح الكنز، والفناء باب البقاء، وشاهدت الأنس في الوحشة، ورأيت الموجودات كلها ذاكرات مسبحات..

إذا وجدت الله فكل شيء يصير إليك

طريقه إلى الله

اختار سعيد النورسي طريقه إلى الله من نور القرآن الكريم، وكتب يقول:

إن للوصول إلى الله سبحانه وتعالى طرقا كثيرة، وسبلا عديدة، إلا أن بعض هذه الطرق أقرب من البعض وأسلم.. كان طريقي إلى الله هو طريق العجز والفقر والشفقة والتفكر..

إن العجز كالعشق طريق موصل إلى الله، وهو يوصلك إلى المحبوب بطريق العبودية.. أما الفقر فيوصل إلى اسم الله الرحمن وكذلك الشفقة كالعشق توصل إلى الله، إلى اسم الله الرحيم. والتفكر كذلك كالعشق إلا أنه اسطع نورا وأرحب سبيلا وهو يوصل إلى اسم الله الحكيم والمقصود بالعجز والفقر والشفقة إظهار ذلك كله أمام الله سبحانه وليس أمام الناس.

أما أوراد هذا الطريق القصير وأذكاره فتنحصر في إتباع السنة النبوية والعمل بالفرائض ولاسيما إقامة الصلاة باعتدال الأركان، والعمل بالأذكار بعدها وترك الكبائر.

أما منابع هذه الخطوات من القرآن الكريم فهي الآيات التالية. (١) (فلا تزكوا أنفسكم) سورة النجم.. وتشير الآية إلى الخطوة الأولى.

(٢) (ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم) سورة الحشر وتشير إلى الخطوة الثانية.

(٣) (ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك) سورة النساء.. والآية تشير إلى الخطوة الثالثة...

(٤) (كل شئ هالك إلاّ وجهه) سورة القصص.. وتشير الآية إلى الخطوة الرابعة..

ويمضي النورسي في إيضاح هذه الآيات التي تقود صاحبها إلى الخطوات الأربع.. إن الإنسان بمقتضى فطرته محب لنفسه مولع بذاته، وهو لا يتوقف عن تزكية نفسه ومدحها، وهو ينسى نفسه ويغفل عنها، وينسب الإنسان الخير لذاته وينسى شروره، بينما الحقيقة أن الخير من الله والسيئات من أنفسنا.. وأيضا ينسى الإنسان حقيقة الأكوان والكائنات..

إن كل شئ يهلك في نهاية الأمر، ولا يبقي إلاّ وجه الله تعالى وحده..

أول اصطدام

سنه١٩٢٢ دعي سعيد النورسي لزيارة أنقرة، لكي يشاهد فرح المؤمنين وابتهاجهم باندحار اليونان أمام الجيش الإسلامي.. إلا أن النورسي أبصر خلال موجة الفرح هذه زندقة رهيبة تدب بخبث ومكر، وتتسلل بمفاهيمها الفاسدة إلى عقائد المؤمنين بغية إفسادها وتسميمها...

وحزن الرجل حزنا شديدا لما أحس به ورآه، يقول الحديث الشريف: (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله)

كان سعيد قد شاهد ورأى ما جعله يحس بالخطر الشديد في البداية.. كانت دعوته إلى أنقرة قد تمت بدهاء يرتدي قناع البراءة... لقد أرسل مصطفى كمال رسالتين برقيتين بالشفرة إلى صديق لسعيد النورسي هو تحسين بك، وكان حاكما سابقا على مدينة وان، يخبره أن يدعو النورسي إلى أنقرة لكي يكافئه على نشر رسالة الخطوات الست...

وذهب سعيد وهو يتصور أن تركيا . بعد انتصارها في الحرب . سوف تدفع عجلة الإسلام إلى الأمام، وسوف تستغل المشاعر الإيمانية التي واكبت الحرب لإظهار الحضارة الإسلامية ورفع شعار الوحدة بين المسلمين..

وعندما وصل سعيد إلى أنقرة استقبل استقبالا حافلا من قبل المسئولين كالوزراء والنواب والناس عموما، ولكنه شاهد ما أثار مخاوفه..

لقد لمس عدم اهتمام بالدين في البرلمان، وعدم اكتراث بالشعائر الإسلامية.. وقرر أن يصحح هذا الوضع بوصفه رجلا من رجال الفكر.. وعكف على كتابة خطاب إلى مجلس الأمة.. كان عنوانه (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) وتمت قراءة البيان في البرلمان، وغضب مصطفى كمال ، وقال للنورسي :

لاشك أننا بحاجة إلى عالم قدير مثلك، وقد دعوناك هاهنا للاستفادة من آرائك السديدة، واستجبت للدعوة، ولكن أول ما قمت به هو كتابة أمور حول الصلاة وبهذا بذرتم بذور الخلاف بيننا.

وتكلم النورسي قائلا:

باشا.. إن أعظم حقيقة في الإسلام بعد الإيمان هي الصلاة، والذي لا يصلي خائن.. وحكم الخائن مردود..

وكان هذا أول اصطدام بمصطفى كمال.

الرسالة

ما الذي أغضب مصطفى كمال من رسالة بديع الزمان سعيد النورسي عن الصلاة.. وهي الرسالة التي قرئت في البرلمان..

إن الرسالة تبدأ بقول النورسي . يا أيها المبعوثون.. أنكم مبعوثون ليوم عظيم. أيها المجاهدون ويا أهل الحل والعقد.. أرجو أن تعيروني سمعكم في بضع نصائح في عشر كلمات:

أولاها: أن النعمة الإلهية العظمى في انتصاركم هذا تستوجب الشكر لتستمر وتنمو، فالنعمة إذا لم تستقبل بالشكر تزول وتنقطع، فما دمتم قد أنقذتم القرآن الكريم من إغارة العدو . بفضل الله تعالى . فعليكم بالتزام أمره الصريح في الصلاة المفروضة.

بعد هذه المقدمة قال لهم النورسي: لقد أسعدتم العالم الإسلامي بهذا الانتصار وكسبتم ود الناس وإقبالهم عليكم، ولكن هذا الود والتوجه يدومان بالتزام الشعائر الإسلامية لقد توليتم قيادة مجاهدين وشهداء وهم بمثابة أولياء صالحين، ومن شأن أمثالكم من الغيورين السعي لامتثال أوامر القرآن الكريم لكي تنالوا حظ صحبة أولئك النورانيين.

إن هذه الأمة الإسلامية، مع أن قسما منهم لا يؤدون الصلاة، إلا أنهم يتطلعون أن يكون رؤساؤهم صالحين أتقياء حتى لو كانوا هم فسقة،

إن أول ما يبادر أهل كردستان (الولايات الشرقية) مسئوليهم هو سؤالهم عن صلاتهم، فإن كانوا مقيمين لها اطمأنوا إليهم ووثقوا فيهم..
وقعت اضطرابات في عشائر بيت الشباب، فذهبت أستقصي أسبابها فقالوا: إذا كان مسئولنا القائم مقام لا يقيم الصلاة ويشرب الخمر، فكيف نطيع أوامر المارقين عن الدين.. هذا علما بأن الذين قالوا هذا الكلام هم أنفسهم لا يؤدون الصلاة، بل كانوا قطاع طرق.
إن ظهور أكثر الأنبياء في الشرق وأغلب الفلاسفة في الغرب رمز للقدر الإلهي بأن الذي يستنهض الشرق هو الدين والقلب، وليس العقل والفلسفة وحدهما، لقد أيقظتم الشرق ونبهتموه فامنحوهم منهجا يتفق مع فطرتهم.
إن الأمة تنظر إلى سلوك قادتها ومسئوليها ونوابها، وهي إما أن تقلد أخطاءهم أو تنتقدها، وكلا الأمرين مملوء بالأضرار والأخطار.
هذا أهم ما جاء في رسالة النورسي لمجلس النواب.

الشرق والغرب

لم يكن في رسالة الشيخ سعيد النورسي التي قرئت في مجلس النواب ما يمكن أن يغضب حاكما في مكان مصطفى كمال.. ورغم ذلك غضب.. وحدث النورسي أنه كان ينتظر منه أن يقول ما هو أهم وأن يقدم إليهم آراء سديدة.. ولكنه خيب ظنهم..

هذا الموقف المبدئي من الصلاة يلقي الضوء على شخصية أتاتورك، ويفسر تصرفاته فيما بعد.. لقد كانت الصلاة في نظره مسألة لا تحتمل أي أهمية، لقد كان ينظر إلى أوروبا.. ويرى تقدمها وموقفها من الدين، ومن ثم فقد تصور ما تصوره بعض المستشرقين من أن الدين الإسلامي بشريعته هو المسئول عن تخلف المسلمين، بينما كان المصلحون من المسلمين يرون أن تخلف المسلمين نابع من بعدهم عن الإسلام، وضياع جوهره وروحه بين أهله..

كان اتاتورك رغم انتصاراته العسكرية مهزوما روحيا أمام الغرب.. لقد فصل الغرب بين الدين والدولة لأسباب وجيهة في أوروبا، وبسبب موقف الكنيسة من العلم.. هذه الأسباب لم تكن متحققة في الشرق، وبالتالي فإن علاج المشكلات في الغرب، لم يكن دواء يصلح للشرق.. صحيح أن في حضارة أوروبا ما يصلح لنقله إلى الشرق، ربما كان

فيها عشرات أو مئات الأشياء.. لكن ليس من بينها فصل الدين عن الدولة، أو قهر الرجال على ارتداء القبعات..

على أي حال.. على الرغم من الجفاء الذي نبع من لقاء النورسي واتاتورك فإن اتاتورك كان سياسيا، فأخفى غضبه وعرض على النورسي تعيينه في وظيفة الواعظ العام في الولايات الشرقية بمرتب قدره ثلاثمائة ليرة مكان الشيخ السنوسي، وكذلك تعيينه نائبا في البرلمان، وأيضا تعيينه في رئاسة الشئون الدينية، مع عضوية في دار الحكمة الإسلامية.. وكان هدف اتاتورك هو إرضاء النورسي وتعويضه عن وظيفته السابقة... ونظر النورسي إلى عرض أتاتورك ثم أدار وجهه للجانب الآخر.. لم يكن ممكنا لنسر تعود على التحليق في أعالي السماء أن يسجن نفسه في وظيفة أو عدة وظائف.

إنقاذ الإيمان

كان النورسي محقا في مخاوفه التي أثارها حواره مع اتاتورك، وكان محقا في رفضه أن يتعاون معه..

وأثبتت الأيام أن النورسي كان ينظر بفراسة المؤمن... وقد أسفر اتاتورك عن فكره الحقيقي:

سنة١٩٩٢ ألغي السلطنة العثمانية، بعدها بعام أعلنت الجمهورية وانتخب مصطفى كمال أول رئيس للجمهورية، بعدها بعام ألغي تدريس الدين وأغلقت مدارس القرآن.

وكان هذا أول الويل الويبل.. وخلال ربع قرن شهدت تركيا جوا حالكا من الاستبداد المطلق والطغيان الغاشم والعداء الرهيب للدين..

وتحت أسماء مزخرفة كالتمدين والتحضر والتقدم، كانت المحاولة هي إطفاء نور الله ومحو شريعته..

واستمرت هذه المأساة ٢٥ عاما.. حتى سنة١٩٥٠.. خلال هذه السنوات مضى زلزال الكراهية يضرب البلاد من أقصاها إلى أقصاها.. بلا رحمة وبلا تردد.

انقلب كل شيء له علاقة بالإسلام، وتغير كل شيء يمت للإسلام بصلة.. سواء أكان هذا الشيء عقيدة أم تراثا أم عادات وتقاليد، حتى الزي والملابس والأرقام وحروف الكتابة والأعياد وأيام العطل..

كان المطلوب الذي تسعي إليه الحكومة هو إبعاد تركيا تماما عن الدين الإسلامي وتحويلها إلى دولة أوروبية.. تلبس مثل أوروبا وتفكر مثل أوروبا.. وكانت العقبة أمام هذا التحول هو الإسلام..

وهكذا بدأت الحرب ضد الإسلام في تركيا، وهي دولة رفعت راية الإسلام ستة قرون من الزمان..

وخلال هذه الفترة كان سعيد النورسي ينتقل بأوامر الحكومة من منفى إلى سجن ومن سجن إلى محاكمة، ومن محاكمة إلى منفى وكانوا يسألونه: من أنت؟.. وما هي رسائل النور التي تكتبها..؟ كان رده: إنني لست شيخ طريقة، فالوقت الآن ليس وقت الطرق الصوفية.. بل وقت إنقاذ الإيمان..

لقد كان إنقاذ الإيمان هو القضية التي لا تحتمل التأجيل لحظة واحدة.

الشيطان والسياسة

كانت حياة بديع الزمان سعيد النورسي كفاحا من أجل شرح الإسلام وإحياء الإيمان، وبعد المحنة الثقيلة التي تعرض لها المسلمون في تركيا أصبحت الحاجة ماسة إلى إنقاذ الإيمان نفسه..

وقد مر النورسي في كفاحه بأكثر من مرحلة كما يحدثنا في كتاباته.. وكان لكل مرحلة ظروفها ومناخها، وقانونها الذي يحدد الأولويات فيها..

في المرحلة الاولي من جهاده حاول النورسي خدمة الإسلام عن طريق الخوض في بحار السياسة..

كان يسبح ضد التيار ويحاول صد هذه التيارات المعادية للإسلام أحيانا عن طريق العمل السياسي..

قابل السلطان عبد الحميد ونصحه وانتقد حاشيته وكسب عداء الحاشية، وقابل وزير الأمن وتحدث معه ورفض الرشوة التي قدمها إليه، وكتب المقالات السياسية في الجرائد والمجلات، وحاول التأثير في رجال الاتحاد والترقي لدفعهم إلى الجانب الإسلامي..

وحاول في أنقرة التأثير في أعضاء مجلس النواب وإثراء الجانب الإسلامي فيهم، وحاول بعد لقائه باتاتورك ان يلفت نظره إلى أهمية الصلاة والإيمان ولكنه فوجئ برد فعل الرجل..

لقد اعتبر حديثه عن الصلاة تضييعا للوقت فيما لا فائدة فيه.

ولقد تعرض النورسي للقبض والتحقيق والمحاكمة والنفي اكثر من مرة.. إن ثلث حياته.. ثلث الأيام التي عاشها على الأرض كان مسجونا فيها أو منفيا أو قيد المحاكمة..

ومع الوقت والتجارب والنضج.. أدرك سعيد النورسي استحالة خدمة الإسلام بالدخول في معترك السياسة ودهاليزها المظلمة وصراعاتها المتقلبة العقيمة..

وهكذا طلق سعيد النورسي الحياة السياسية وقال كلمته الشهيرة في ذلك . أعوذ بالله من الشيطان والسياسة..

وهكذا أدار ظهره لعالم السياسة وكتب يقول عن نفسه:

لقد خاض سعيد القديم غمار السياسة ما يقارب العشر سنوات، لعله يخدم الدين والعلم عن طريقها، ولكن محاولته ذهبت أدراج الرياح.. لماذا..؟ لان اغلب السياسة خداع وأكاذيب، وهناك احتمال أن يكون السياسي آلة بيد الأجنبي دون أن يشعر..

ناقوس خطر

مضى سعيد النورسي يعدد أسباب تركه للعمل السياسي وختم كتابته بقوله:

ـ من اجل هذا كله فإن سعيدا القديم قد ترك السياسة ومجالسها الدنيوية كما ترك السيجارة وقراءة الجرائد.

لا يسع المرء إلا أن يتوقف أمام هذه العبارة، في كتابها القيم (دور كليات رسائل النور في يقظة الأمة) للباحثة المصرية خديجة النبراوي.. توقفت الباحثة أمام هذه العبارة.. وشرحت في فصل كامل الموقف الحقيقي للمجاهد النورسي من الحياة السياسية والفكر السياسي تقول السيدة خديجة: يمكن للإمام النورسي أن يعتزل الحياة السياسية بصفته عالما يبحث عن الحقائق الجوهرية، ويبتعد عن الصراعات الدنيوية، ولكنه لا يمكن أبدا أن يعتزل الفكر السياسي، بصفته إنسانا راقيا يعيش في عالم الأفكار السامية، ويحمل على عاتقه مهمة العلماء وهم ورثة الأنبياء..

وما كان لإمام مثل النورسي أن يدع الفكر السياسي، لأنه ركن هام من أركان العقيدة الإسلامية، فهو الركن الذي يتولى تنظيم طريقة

الحكم في حياة الشعوب الإسلامية، كما يتولى تنظيم علاقة الأمة الإسلامية بالأمم الأخرى.

وقد شاع لبس بين أفراد الأمة الإسلامية بأسرها، وهو لبس مؤداه انه لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين..

وهذه مقولة باطلة.. إذ السياسة والدين توأمان لا ينفصلان، ويرى النورسي أنه لا سعادة لأمة الإسلام إلاّ بتحقيق حقائق الإسلام..

لماذا هجر النورسي الحياة السياسية؟ إن الأسباب التي ساقها تعتبر في مجموعها إدانة للسياسة العصرية التي تتجاهل الحق والعدل، وتبين بوضوح لا لبس فيه أن أي سياسة لا تستند على المبادئ الإنسانية السامية، هي ضياع للبشرية بأسرها وإذن.. فقد كان هجر النورسي للسياسة هو ناقوس خطر ينبه الأمة الإسلامية إلى وضعها المتدني.

رسائل النور

كانت الأقدار العليا تسوق الشيخ سعيد النورسي من مدينة إلى أخرى، حيث له في المدينة الأولى سجن، وله في الثانية منفى، ومعه في جميع الأحوال قرآن يقرأ فيه ويتدبر آياته.

وخلال هذا الضغط العصبي والنفسي والعزلة والوحدة، تولدت في قلبه معان جليلة تتبع من فيوض القرآن، وقد أملى هذه الرسائل على من حوله.

وهو ينكر أي جهد في صناعتها أو تأليفها ويقول:

إن هذه الرسائل لم تكن أفكارا دبجها عقلي، وإنما هي إلهام إلهي أفاضه الله سبحانه على قلبي من نور القرآن الكريم.

وقد تلقف تلاميذه هذه الرسائل، وكانوا يكتبونها ويستنسخون منها نسخا توزع على الأصدقاء والأحباء والأهل والأقارب.

لماذا سماها رسائل النور؟

يقول الشيخ سعيد:

إن كلمة النور صاحبته وتراءت له في كل مكان طوال حياته.

قريتي اسمها نورس.. اسم والدتي المرحومة نوريه..وأستاذي في الطريقة النقشبندية أسمه: سيد نور محمد..أستاذي في الطريقة القادرية

اسمه: نور الدين..وأستاذي في القرآن اسمه: نوري..وأكثر طلابي يحملون اسم نور..

ضع هذا كله جانبا.. وتأمل الحقيقة التالية:

إن أول آية كريمة لمعت في عقلي واحتلت قلبي وشغلت فكري هي قوله تعالى:

(الله نور السماوات والارض* مثل نوره كمشكاة فيها مصباح)

أضف إلى ذلك أن النور اسم من أسماء الله الحسنى..

ولقد كان تأليف رسائل النور ونشرها شيئا متميزا وفريدا في تاريخ الدعوات الإسلامية المعاصرة، لأن الأستاذ سعيد النورسي لم يكن يكتب أكثر رسائله بيده، لكونه نصف أمي من حيث القدرة على الكتابة، ومن هنا فقد كان يملي أغلب الرسائل على بعض طلابه في حالات من الجيشان الروحي والوجداني، بعد ذلك تتداول النسخة الأصلية بين الطلاب الذين يقومون بدورهم باستنساخها باليد، ثم ترجع هذه النسخ جميعا إليه لتصحيحها وتمحيصها.

بهذه الرسائل وقف النورسي يصد عن الإسلام هجمات البغاة.

مطاردات وشكوك

رغم أن الأستاذ سعيد النورسي أعلن طلاقه للسياسة، واقتصر بعدها على رسائل النور..

رغم هذا كله لم تتوقف مطاردة السلطات له ولتلاميذه وكانت هذه المطاردات تأخذ أشكالا عديدة..

التوقيف والقبض والسؤال والاستجواب والشك الذي يغلف هذا كله..

انهم لا يصدقون أن النورسي أستاذ يجلس حوله تلاميذه إنما يتصورون . بالعقلية البوليسية التقليدية أن هنا تنظيما ما.. وان هناك جمعية ما.. وهم يسألون النورسي وتلاميذه.

. من أين تجدون المال لتأسيس هذا التنظيم..

. هل تتصلون بأحد من الخارج..؟

. هل هذه جمعية سياسية؟ بماذا تسمونها بينكم؟

– متى بدأت؟ كيف تلتقون؟ وما هذه الرسائل التي تتبادلون قراءتها بينكم؟

كانت هذه الأسئلة توجه لبديع الزمان سعيد النورسي، وهو موجود في ولاية اسبارطة منذ عشر سنوات تحت الرقابة الشديدة.. ولا يقابل إلا خادما أو ضيفا كل عشرة أيام.. كانت إقامته محددة..

وكان شعاره أعوذ بالله من الشيطان والسياسة، ورغم أن النمل لم يكن يستطيع أن يقابله إلا إذا مر على الشرطة، رغم هذا كله ظلت نظرة السلطات إليه أنه متآمر يدبر شيئا مجهولا لا يستطيعون وضع أيديهم عليه أو إدراك كنهه.

كانت التهم توجه إليه زورا وبهتانا.. في نفس الوقت.. كانت رسائل النورسي تنسخ في كل بيت.. كانت تنتشر.. وتكسب كل يوم قلوبا جديدة وأرضا جديدة، ونفوسا طال شوقها لنور القرآن الكريم في جو مسموم ترشح فيه سموم الإلحاد والمادية وجحود الخالق العظيم.. ولعل كرامة النورسي وشموخ روحه انه استمر رغم هذا الجو الكئيب المثبط في كتابة الرسائل، أو إملائها على تلميذ من تلاميذه..

لم ييأس.. ولم يتردد.. ولم يهزم.. وإنما ظل يحمل المشعل ويضيء به ظلمات العقل والقلب.

أخيرا حكمت المحكمة

استمرت مطاردة رسائل النور، واستمرت محاكمة الذين يكتبونها أو يقرءونها أو يوزعونها..

وأصبح من المشاهد المألوفة والمتكررة هذه المحاكمات التي تقوم بها السلطة لطلاب رسائل النور.

وكان الهجوم على سعيد النورسي يتلخص في العبارة التالية:

. إن سعيدا الكردي يستغل الدين للسياسة.

وكان رد الشيخ سعيد على هذه الفرية هي قوله:

أقسم بجميع المقدسات أنه لو كان عندي ألف سياسة لكنت ذبحتها قربانا للحقائق الإيمانية.. فكيف أجعل الحقائق الإيمانية أداة لسياسة الدنيا.. لقد فندت هذا الاتهام في مائة موضع، إلا انهم مازالوا يرددون النغمة ذاتها.

كانت رسائل النور تفسيرا قيما للقرآن الكريم.. والتفسير نوعان:

الأول: هو التفاسير المعروفة التي تبين وتوضح معاني عبارات القرآن الكريم وجمله وكلماته.

الثاني: هو إيضاح وبيان الحقائق الإيمانية.. ولهذا النوع الثاني تنتمي رسائل النور.

إنها تفسير معنوي للقرآن الكريم. وبسبب أنه تفسير جديد وغير تقليدي فقد أوقع السلطات في الحيرة، ومضت تتعقبه كما لو كان خارجا على القانون وبدلا من مناقشته في محافل العلم نوقش في المحاكم.

كانت محكمة آفيون قد شكلت لجنة من الخبراء لمعرفة حقيقة رسائل النور وإبداء الرأي حولها ومعرفة ماذا كانت تحوي ما يؤاخذ عليه القانون التركي.. وقع هذا سنة١٩٤٨.. واستمرت هذه المحكمة ثماني سنوات تدرس الأمر، أخيرا أصدرت قرارها سنة١٩٥٦ بناء على التقرير المقدم من لجنة الخبراء، وحكمت المحكمة بأن الرسائل تخلو من أي عنصر يخالف القانون..

كان هذا القرار يعني طبع رسائل النور وتوزيعها علنا.. أخيرا انتصر الحق.. وحمل هذا الحكم فرحة عارمة للشيخ سعيد النورسي وقال : هذا هو عيد رسائل النور.. كنت انتظر هذا اليوم.. لقد أنهيت مهمتي إذن وسوف أرحل قريبا.

الرحيل الأخير

لم يدخل الشيخ سعيد النورسي الحياة السياسية، ولم يؤلف حزبا سياسيا، ولم يعرف له نشاط سياسي.

بعد حكم المحكمة الأخير طبعت من الرسائل ملايين النسخ.. وكان الأستاذ قد طعن في السن واشتدت عليه أمراض الشيخوخة، ورغم ذلك كان دائم السفر والترحال من بلد إلى بلد، ومن مدينة إلى مدينة، ومن قرية إلى قرية.

هل كان يودع تلاميذه.. هل كان يحس بدنو أجله.. الله وحده يعلم حقيقة المشاعر التي جاشت في قلبه، وكانت تدفعه لهذا السفر المتكرر.

في أبريل سنة١٩٥٨ اعتقل جميع من كانوا في خدمة الأستاذ من طلاب النور، والذين يعملون في نشر الرسائل في أنقرة وفي اسطنبول وفي اسبارطه.

وفي شهر مارس سنة١٩٦٠، الذي كان يوافق شهر رمضان، ودع الأستاذ تلاميذه، واستسلم للنعاس وأسلم الروح. مات سعيد النورسي في مدينة أورفه.

وانتشر خبر موته فتجمع الناس آلافا حول الفندق الذي كان ينزل فيه.. وصارت مدينة أورفه منطقة جذب بشري لآلاف المعزين الذين جاءوا لوداع أستاذهم بديع الزمان وانهمر المطر وهم يشيعون الأستاذ إلى مثواه الأخير في مقبرة أولو جامع، وبدا كأن السماء تشارك المعزين في البكاء.

.....

لم يكن هذا المثوى هو مثواه الأخير..

لقد اكتشفت السلطات أن الشيخ يهددهم في موته كما كان يهددهم في حياته.

بعد مرور خمسة أشهر على دفنه، لاحظت السلطات أن قبره قد صار مزارا..

واتجهت قوة من الشرطة والجيش إلى قبره وحفروه واخرجوا جثمانه ووضعوه في تابوت، وحملوا التابوت إلى طائرة عسكرية ذهبت به إلى مدينة مجهولة.. وهناك دفنته في مكان مجهول لا يعرفه الآن أحد.

الفرسان الثلاثة

سنعيش شهر رمضان مع ثلاثة من كبار الصوفية.. ينطبق عليهم وصف الفرسان الثلاثة.

فقد برزوا إلى الوجود فانطلق كل واحد منهم يجاهد بعبقريته من أجل حياة روحية أفضل.. وتركوا لنا آثارا أدبية وروحية خالدة..

الفرسان الثلاثة ينتمون إلى قرون مختلفة.

أولهم هو محمد بن عبد الجبار النِفَّري، وهو ينتمي إلى القرن الهجري الرابع.

وثانيهم هو جلال الدين الرومي شاعر الصوفية الأكبر، وهذا ينتمي إلى القرن الهجري السابع.

أما ثالثهم فهو بديع الزمان سعيد النورسي، وهذا ينتمي إلى القرن الذي نعيش فيه.

سنحاول معرفة وجوه اللقاء ووجوه الإختلاف بينهم، كما سنحاول رصد تأثير العصر الذي عاشه كل منهم في إبداعه، ولئن كان الوقت والجهد والأدوات لن تسعفنا فحسبنا أن نعيش مع هؤلاء الثلاثة الذين تركوا آثارا أدبية وفلسفية ودينية خالدة.. وأن نتنزه

في حدائق المعرفة التي غرسوها، وأن نتذوق الثمار الحلوة التي يشبه مذاقها عسل الروح.

.....

ترك لنا بديع الزمان سعيد النورسي أوراقا حملت اسم رسائل النور. وهي رسائل كتبت في ظروف حياة صعبة، وجهاد شاق، وقت أن كانت السهام الموجهة للإسلام تريد القضاء عليه وتفريغه من محتواه وهزيمته نهائيا أمام مدنية الغرب.

كان سعيد النورسي يكتب هذه الرسائل وهو في منفاه، أو في سجنه.. أو وهو مطارد قد بثوا العيون حوله.. وعلى الرغم من هذا كله فقد مضى الرجل يكتب رسائل النور.

لماذا سميت رسائل النور؟ الجواب أنها ترشحت من نور القرآن، يقول بديع الزمان سعيد النورسي ان الرسائل ليست ملكي وليست مني بل هي ملك للقرآن العظيم.. نعم.. لا تُبحث ما في عناقيد العنب اللذيذة من خصائص في سيقانها اليابسة، فأنا كتلك الساق اليابسة لتلك الأعناب اللذيذة. لهذا كله أقول إن ما في رسائل النور من حقائق وجمال ليس مني وإنما هي شعاعات التمعت من حقائق القرآن.

ماذا ترك النورسي

ترك لنا بديع الزمان سعيد النورسي ما يقرب من عشرة مجلدات هي رسائل النور..

وقد عكف بديع الزمان على كتابتها في ظروف بالغة الحرج والصعوبة، ولكنه قهر إرادته على أن يكون خلال عصره هو الصوت الأعلى في الدفاع عن الإسلام ..

ومن المدهش أن بديع الزمان . كما تحدث عن نفسه . كان نصف أمي، وكان يكتب بخط تصعب قراءته، وكان يملي على بتلاميذه أفكاره في رسائل النور، وهم ينسخونها ويوزعونها بعد ذلك على الناس..

ورغم انتشار الرسائل انتشاراً واسعا للغاية، فقد لوحظت عليها أكثر من ملاحظة:

الأولى: أن أحدا لم يقم بنقد الرسائل ابتداء من أعظم عالم إلى أدنى رجل من العوام، ومن أكبر ولي صالح إلى أدنى فيلسوف ملحد، لقد عرضت الرسائل على طبقات الناس جميعا فلم يتناولها أحد بالنقد، وكان الإعجاب هو الصفة الغالبة على شعور الذين تلقوها، وهذا كله

يعني أن هذه الرسائل كانت كما يقول الصوفية لونا من ألوان الفيض الإلهي على قلب بديع الزمان.

الملاحظة الثانية: أنه رغم السرعة الفائقة التي كتبت بها الرسائل (حتى قيل كأن أحدا يمليها عليه)، إلا أنها لم تلحق أي ضرر بأحد من الناس.. والمعروف أن أي كتاب يبحث في الحقائق الإلهية والإيمانية يمكن أن تترك بعض مسائله ضررا في الناس.. أو في بعض الناس، أو يثير خلافا بين الناس، أو يدعو للجدل الذي يفضي للخلاف والإقتتال.. وهذا ما لوحظ غيابه تماما في رسائل النور.. لقد تلقاها الناس قبولا عاما.. ولخصها بعض أبناء العصر الذي كتبت فيه بأنها دواء لجراحات هذا الزمان.

لقد وجد فيها الناس على اختلاف طبقاتهم ومشاربهم ما ينفعهم في الدنيا والآخرة، ويبدو أن النورسي سئل في حياته أن يفسر هذا القبول الحسن الذي حظيت به الرسائل فتواضع وأنكر فضله فيها، ولكن واحدا من تلاميذه لخص الموقف بقوله: إن الكلمات المباركة هي لمعات من نور الكتاب المبين.

إبداع الرومي

ماذا ترك جلال الدين الرومي الذي يسمونه شاعر الصوفية الأكبر من آثار أدبية خالدة..

تنقسم آثار هذا الشاعر إلى قسمين، قسم منثور وقسم منظوم، أما القسم المنثور فعلى الرغم من أهميته لدراسة الشاعر، فإنه لم يكن المجال الذي تجلت فيه عبقريته، كما يقول الدكتور محمد عبد السلام كفافي رحمه الله تعالى..

ويتكون إنتاجه النثري من ثلاثة مؤلفات، نحسب أنه كتبها قبل أن يخطو بقلبه في عالم الصوفية.. وبالتالي فإن قيمتها الأدبية متواضعة للغاية.. أما الجانب المهم من إنتاج الرومي فهو شعره..

لقد ترك جلال الدين الرومي نحو سبعين ألف بيت من الشعر، فإذا كانت هذه الكثرة مقرونة بالإجادة والتفرد والعبقرية، فمعنى هذا أن شاعرنا قد انطلقت شاعريته بفيض غامر من الشعر، قلما أتيح لشاعر آخر في أي زمان أو بأي لغة..

ومن المدهش في حياة جلال الدين الرومي أنه لم يبدأ قرض الشعر إلا وهو يقترب من عامه الأربعين..

ظل أستاذا للفقة حتى بلغ الثامنة والثلاثين، ثم وقعت في حياته نقطة تحول، انقلب بعدها من عالم الفقه إلى مجال الشعر..

ولقد ترك جلال الدين الرومي ثلاثة كتب من الشعر، أولها هو ديوان شمس تبريز.. وثانيها هو الرباعيات، وثالث الدواوين هو المثنوي المعنوي، وهو ينقسم إلى ستة مجلدات تضم نحو خمسة وعشرين ألف بيت من الشعر.

وكتاب المثنوي يعد أثرا من الآثار الأدبية الخالدة، يرتفع فيه الشاعر إلى آفاق لا نعرف أن أحدا من الشعراء قد ارتفع إليها.. ويعظم الإيرانيون هذا الكتاب، ويقول جلال الدين في مقدمته العربية هذا الكتاب المثنوي، هو أصل من أصول الدين، في كشف أسرار الوصول واليقين، وهو فقه الله الأكبر، وشرع الله الأزهر، وهو كنيل مصر شراب للصابرين وحسرة على آل فرعون والكافرين.

أما موضوع الكتاب فتحديده من الأمور العسيرة، لأن موضوعه هو الوجود كله بصفة عامة، والإنسان والحياة بصفة خاصة.. وقد بني المثنوي على القصص، ولكنها قصص عجيبة ينفذ منها القارئ إلى الحكمة الكلية والإدراك العميق.

كنز النِفّري

كان محمد بن عبد الجبار النفري صوفيا عجيب الشأن..
كان درويشا جوالا لا يستقر به المقام في مكان حتى تتبعث في نفسه دواعي الرحيل فيرحل..
إلي أين..؟ لا أحد يدري إلى أين.. المهم أن يغادر مكانه الذي هو فيه ويرحل إلى مكان آخر..
وطبعا كان يتبعه مجموعة من المريدين أو التلاميذ..وكان النفري يتكلم..لم يكن يكتب أو يعد في الأوراق ما سيقوله، إنما كان يتحدث فحسب لجمهوره الصغير الضيق..
بعد أن مات النفري ودفن في إحدى مقابر مصر، عكف حفيده على جمع كلماته.. تحت عنوان المواقف والمخاطبات..
هذا ما تركه النفري للأجيال التي سوف تأتي من بعده، ومات هو بعد أن ترك لنا كنزه الثمين الذي هو عبارة عن كتاب.
كان في الأصل كلاما مرسلا يطلقه وسط مريديه، وقد نشره آرثر يوحنا آربري سنة١٩٣٤ إلى جوار بعض المصنفات الأخرى المنسوبة إليه..

كان النفري قادرا على التركيز والإيجاز الذي يعرفه الشعراء عادة، وقد عثرتُ على كتاب اربري منذ سنوات بعيدة، وقرأته فوجدت صعوبة في فهمه، ذلك لأن أسلوبه في الكتاب أسلوب رمزي غامض، كما هو الشائع في الأساليب الصوفية، وان كان يتميز بصياغته الرفيعة التي تتحقق فيها أعلى درجة من البلاغة..

ثم قدم الدكتور جمال أحمد المرزوقي أطروحته لنيل درجة الدكتوراه عن النفري، وكان هذا بمثابة ضوء ألقاه على حياة هذا الصوفي العظيم..

ويسعى النفري في مصنفاته نحو مذهب صوفي جديد، وهو مذهب يقوم على ما يسمي بالوقفة، والوقفة هي نهاية سلسلة من المجاهدات التي تنتهي بالسالك من الجهل إلى العلم إلى المعرفة ثم إلى الوقفة، والوقفة عند النفري تعني أن ينفصل الصوفي تماما عن السوى (كل ما سوى الله).. ويفنى عن الأكوان، ويفنى عن نفسه وعن كل شيء في الوجود.. من فرط استغراقه في التوحيد وتجريده له.

عصر النورسي

الصوفي ابن عصره.. وهو كإنسان لا يختار زمن مولده أو مكان نشأته، إنه يولد في عصر من العصور، ويتأثر بهذا العصر إيجابا أو سلبا، وأحيانا يحس الصوفي أنه في حاجة لأن يعلن الحقيقة على الملأ حتى ولو وقف العالم كله ضده..

وقد ولد النورسي في تركيا، وعاش فترة حافلة بالأحداث الجسام التي تمثلت في الاستبداد المطلق، والطغيان المعربد، والعداء الصريح لدين الإسلام ..

لم تكن هذه الكراهية للإسلام كراهية قلبية، أو كراهية نظرية، إنما كانت في المقام الأول سعيا لإطفاء نور الله، وتحطيم شريعته وإلغاء القيم الإسلامية في الوقت نفسه.

وقد استمر هذا الكابوس ربع قرن من الزمان.. منذ العشرينات حتى سنة١٩٥٠..

في هذه الفترة ألغيت الخلافة العثمانية، بعدها بعامين أعلنت الجمهورية في تركيا وانتخب مصطفي كمال اتاتورك أول رئيس للجمهورية..

بعد ذلك انهار السد وانكشفت النيات المضمرة..ألغي تدريس الدين، وأغلقت مدارس القرآن، وألغيت وزارة الأوقاف والشئون الدينية، كما أغلقت جميع الزوايا والتكايا، واستبدل التقويم الرومي التقويم الجريجوري الأوروبي، وصدر قانون عجيب اسمه قانون القيافة، وهو قانون يعاقب على لبس العمامة، ويلزم الرجال بلبس القبعة ويلزم النساء باللباس الأوروبي، وتم إجبار الموظفين على لبس القبعة، أما العاملون في المساجد فأجبروا على لبس الزي الأوروبي وتم إلغاء الألقاب، كالشيخ والخليفة والمريد، وصدر قانون النكاح المدني وبموجبه تم تحريم تعدد الزوجات، وألغي المهر المفروض من الزوج، وأصبحت المرأة حرة في اختيار الزوج من أي دين، وتمت تسوية الذكر بالأنثى في الميراث، ووضع قانون جديد للميراث لا علاقة له بقانون القرآن، وألغي فصل النساء عن الرجال في وسائل النقل العامة، وأخرجت كلمة الله من القَسَم الذي يؤديه رجال الدولة، وألغيت الحروف العربية وحلت مكانها الحروف اللاتينية، وألغي الآذان باللغة العربية..
وكان الهدف تجفيف منابع الدين وتقليد أوروبا في كل شيء..
وتحرك بديع الزمان سعيد النورسي وسط هذه الكوارث كلها، وكان هدفه من حركته هو إنقاذ الإيمان.

عصر الرومي

عاش جلال الدين الرومي في القرن السابع الهجري.. وهذا عصر من عصور التحول في الشرق الإسلامي.

لقد ظهر فيه المغول، واستطاع جنكيز خان أن يجتاح مملكة خوارزم شاه جلال الدين، واجتاح هولاكو الإمارات التابعة للخوارزم شاهيه، ثم دخل بغداد وأعمل فيها القتل، وبطش بالمستعصم آخر خلفاء بغداد العباسيين رمز الوحدة الإسلامية في ذلك الوقت، ثم قتل ما قتل وخرب وأحرق، ولولا الطوسي ومن معه لقضي على الإسلام في الشرق الإسلامي، كما يقول الدكتور يحيي الخشاب..

وفي إيران يقيم هولاكو دولة الايلخانيين، ويسلم بعض المغول ثم يسلم ملك المغول ومن معه من الجيوش..

وفي مصر كانت الروح الإسلامية في أوجها وقمتها، فمنذ سنوات حدثت واقعة حطين، وكانت ذكراها ماثلة في أذهان المصريين، وتملأ قلوبهم حبا للإسلام وحرصا على المحافظة عليه ونشره، وتقع الهزيمة بجيش المغول في عين جالوت، وينتصر الإسلام بانتصار المصريين، وتصبح مصر قبلة كل مسلم يريد الحفاظ على الإسلام في بلده.

والذي يستعرض تاريخ هذا القرن السابع الهجري خاصة في إيران يجد أن ظهور التصوف كان أمرا طبيعيا في هذا الجو المشحون الذي لا أمان فيه لأحد.. والذي كان الإسلام يتعرض فيه لخطر الإبادة، لولا مصر من ناحية، وعلماء الفرس من ناحية أخرى..

وفي هذا الجو المشحون بالمخاطر عاش جلال الدين الرومي، درس الفقه وصار أستاذا من أساتذته..

وذات يوم.. كان في مجلس علمه يحدث التلاميذ والمريدين عن مسألة فقهيه حين دخل المسجد رجل يبيع الحلوى.. واقترب الرجل من جلال الدين الرومي وسأله:

. ما المقصود من الرياضيات والعلوم ؟!

قال جلال الدين الرومي: الاطلاع على آداب الشرع..

قال الرجل الذي يبيع الحلوى: لا..بل المقصود منها الوصول إلى المعلوم.. إن العلم إذا لم يجردك من نفسك فالجهل خير منه..

وكانت هذه نقطة التحول في حياة الرومي، لقد خرج وراء شمس الدين بائع الحلوى، وانقلب من أستاذ يقوم بالتدريس إلى تلميذ يدرس على يدي أستاذة.

عصر النفري

عاش محمد بن عبد الجبار النفري في العصر العباسي الثاني، في القرن الرابع الهجري.. ويحدثنا مؤرخو هذه الفترة أن الخلافة العباسية كانت قد وصلت إلى مرحلة الوهن والضعف لازدياد نفوذ الترك حتى أصبح خلفاء هذا العصر مسلوبي السلطة، ضعيفي الإرادة، بسبب تدخل الأتراك في شئون الدولة وتنصيب من يشاءون وعزل من يريدون أو قتله.

وقد زخر العصر العباسي الثاني بالعديد من الحركات السياسية والدينية التي كان لها أثر كبير في سير الأحداث في ذلك الوقت، ولعل أهم هذه الحركات ثورتا الزنج والقرامطة..

يقول د. جمال المرزوقي: سنجد في الفترة التي عاصرت النفري أن حركة الإلحاد والزندقة لم تهدأ في هذا العصر، بل لقد اشتد أوارها، إذ تحول كثيرون إلى التشكيك في النبوات عامة، ولعل في ذلك ما يصور . من بعض الوجوه . الهجمات العنيفة التي كان يصوبها الملحدون في القرن الثالث الهجري والنصف الأول من القرن الرابع إلى الإسلام والقرآن الكريم، بل إلى الديانات عامة. كانت موجة الإلحاد تحتاج إلى سد عظيم يوقفها، وكان العصر يذوب شوقا لمن يلعب هذا الدور.

وجاء النفري استجابة لحاجة عصره.

ظهر النفري يلفه غموض كغموض عصره، نحن لا نعرف من هو، ولا نعرف لماذا لم يتحدث عن مصنفاته وأساتذته أو شيوخه أو الأطوار التي مر بها.. لم يتحدث عن شئ من هذا كله بينما كان الصوفية يتحدثون في هذا كله.. أيضا كان قلقه المكاني، وكثرة أسفاره وترحاله وتعمده الابتعاد والتخفي سببا في زيادة غموضه، وإن كان قد برر أسفاره يوما بقوله:

إذا ضقت ذرعا بدواعي نفسك فاسكن إلى زوجتك فإن ضقت فإلى أهل علمك، فإن ضقت فإلى أهل معرفتك، فإن ضقت فَسِر في الأرض، فإن ضقت فالزم بابي، فإن ضقت فيه فاصبر، فإن ضقت فيه فاصبر (كررها حتى قال) اصبر ينفتح لك نوره.

هذا الصوفي الغامض قدم في تجريد التوحيد كتابا لم يقدم مثله أحد، ولا وصل إلى عمق أغواره أحد، ومن فرط تواضعه لم يكتب ما كان يقول، إنما كان يؤلف كتابه شفهيا لمريديه، ويكتفي بذلك.

قصة حياة الرومي

ولد جلال الدين الرومي في مدينة بلخ يوم ٦ ربيع الأول سنة٦٠٤ هجرية(سبتمبر سنة١٢٠٧ ميلادية).. أي ما يقرب من٨٠٠ سنة، وقد لقب بالرومي نسبة إلى أرض الروم (بلاد الأناضول) حيث قضى معظم حياته.

كان أبوه محمد بن الحسين الخطيبي، وكان يدعى بهاء الدين ولد، وكان الرجل عالما دينيا من أتباع المذهب الحنفي..

وحين بدأت غارات المغول على الشرق الإسلامي في مطلع القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) اضطر أبو الشاعر أن يترك موطنه حين شعر بقرب هجوم المغول..

كان جلال الدين الرومي يومئذ في الخامسة من عمره..

ومضت الأسرة تنتقل من مدينة إلى مدينة أخرى. وفي نيسابور التقت بالشاعر الصوفي فريد الدين العطار، وتذكر الروايات أن العطار أخذ الطفل جلال الدين الرومي بين ذراعيه، وأهداه نسخة من منظومته أسرارنامه وتنبأ له ببلوغ المرتبة العليا في التصوف..

ومن نيسابور انتقلت الأسرة إلى بغداد ومن بغداد إلى مكة، وبعد عدة تنقلات استقرت الأسرة في قونيا، وكانت عاصمة للسلطان علاء الدين السلجوقي الذي كان من سلاجقة آسيا الصغرى.

وتلقى الشاعر تعليمه في أول الأمر على يد أبيه، ثم على يد أستاذه برهان الدين محقق في قونيا.. بعد وفاة أستاذه تولى جلال الدين الرومي التدريس فيها، وكان يحاضر في الفقه وعلوم الشريعة.

كان عمره يقترب من الأربعين حين التقى بدرويش اسمه شمس الدين تبريز.. وكان رجلا يجوب الآفاق ولا يستقر في مكان، وكان يبيع الحلوى.. التقى جلال الدين الرومي بهذا الدرويش، فكان هذا اللقاء نقطة تحول في تاريخ الرومي..

في البداية دخل المسجد وسأله وناقشه ثم تكلم.. بعد هذا الحوار تحول الرومي إلى إنسان آخر، واختلفت كل أحواله عما كانت عليه من قبل.. كان أستاذا في علوم الشريعة فصار تلميذا في علوم الحقيقة.. وهجر جلال الدين الرومي مهنة التدريس ولم يعد يفارق شمس الدين تبريز.. وبعد أن كان يتكلم.. صار يفضل أن يستمع، ولم يرضى تلاميذه عن هذا الموقف الجديد.. وتحركت نوازع الحقد في نفوسهم.

أستاذ الرومي

لا نعرف على وجه التحقيق من هو شمس الدين التبريزي، وهو درويش في الستين من عمره.. إن كتب التراجم لا تقدم لنا معلومات واضحة عن التبريزي هذا، إن أصله غير معروف على وجه اليقين، وقد وصفه البعض بأنه كان شبه أمي، ولكنه كان يتسم دائما بالحماس الروحي العظيم في حديثه، وكان ذا أثر بالغ في نفوس من استمعوا إليه.

لم يكد جلال الدين الرومي يلتقي بشمس الدين التبريزي حتى وقع أسير أفكاره وروحه، وصحبه إلى بيته وامتنع تماما عن تدريس الفقه لطلبته ومريديه.

وقد تحدث الرومي عن هذا التحول العميق في إحدى رباعياته فقال:

عندما اشتعلت نيران الحب في صدري
أحرق لهيبها كل ما كان في قلبي
فازدريت العقل الدقيق والمدرسة والكتاب
وعملت على اكتساب صناعة الشعر وتعلمت النظم.

أحس تلاميذ الرومي أن أستاذهم قد انصرف عنهم تمام الانصراف، وكان السبب في ذلك هو شمس الدين.. وبدأ الهجوم على شمس

الدين، هذا الدخيل الذي صرف أستاذهم عنهم، وأسفر الصراع مع شمس الدين عن سفره فجأة إلى دمشق، ويبدو أن شمس الدين شأنه شأن أصحاب الطاقة الروحية العليا لا يستطيع أن يدخل في صراع مع قوم يكرهونه، لأنه صرف أستاذهم عنهم..

وهكذا انسحب التبريزي بنفسه وخرج من حياة الرومي، وسقط الرومي في بئر الأحزان لافتراقه عن صديقه الروحي، ونظم كثيرا من شعره الوجداني في هذه الفترة، وأحس الرومي بالتعاسة لفقد صديقه، إلى الحد الذي دفع ابنه إلى أن يسافر إلى دمشق ويعود بشمس الدين، ومع عودة شمس الدين، عادت الأحقاد والمؤامرات من تلاميذ الرومي، فعاد شمس الدين للسفر، وعاد الرومي يرسل ابنه ليحضره، حتى جاء عليه وقت واختفى فيه تماما، وقيل في تفسير هذا الاختفاء إن تلاميذ الرومي قتلوه.. وقد تألم الرومي كثيرا لفقد صديقه، وصرخ من أعماق قلبه شعرا يقول فيه:

من ذا الذي قال إن شمس الروح الخالدة قد ماتت؟
ومن الذي تجرأ على القول بأن شمس الأمل قد تولت؟
إن هذا ليس إلا عدوا للشمس وقف تحت سقف
وعصب كلتا عينيه ثم صاح.. ها هي الشمس تموت.

قصة حياة النورسي والنفري

قصة حياة النورسي معروفة فهو ابن القرن الذي نعيش فيه، ولد وتعلم وتفقه في الدين، ومارس التجارب الروحية التي يمارسها العارفون بالله، ثم بدأت الفيوضات الإلهية وفتح الله عليه برسائل النور..

بعدها لم يعرف الراحة إلا اختلاسا للحظات من لحظات العمر كانت حياته انتقالا من سجن إلى سجن، ومن محكمة إلى محكمة، ومن تحقيق إلى تحقيق، ومن استجواب إلى استجواب.. ومن منفى إلى منفيى.. إلى جوار مداهمة بيته، وتحديد إقامته الجبرية فيه ومنعه من دخول مسجده أو الصلاة فيه.

كانت هذه السلسلة هي قصة حياة بديع الزمان سعيد النورسي، وكان الشبح الذي يخيف السلطات الحاكمة يومئذ هو رسائل النور، وعلى الرغم من كل الإزعاج الذي أوقعوا النورسي فيه، لم يستطيعوا منعه من كتابة رسائل النور ولم يستطيعوا منع تلاميذه من نسخها وتوزيعها على الناس.

ولقد مات النورسي ودفن في إحدى المقابر، ولكن السلطات الحاكمة خشيت أن يتحول القبر إلى مزار، ولهذا نقلت جثمانه إلى مكان مجهول..

هذه قصة حياة النورسي..

كان يخيف الظالمين حيا وميتا.. وكان النور الذي جاء به كافيا ليبدد ظلمات الحياة ويكشف عن الحق ويدعو الناس إليه....

.....

ما هي قصة حياة النفري؟

لقد عاش النفري في القرن الهجري الرابع.. وقصة حياته مجهولة.

كما أن شيوخه وأساتذته مجهولون، ونحن لا نعرف عمن تعلم ولا على أي عقليات ودرس، كل ما نعرفه عنه أنه كان درويشا جوالا ينتقل من مكان إلى مكان، ومن مدينة إلى مدينة.. وبسبب تنقلاته وأسفاره ورحلاته لا نعرف عنه الكثير.. وهناك سبب آخر لهذا الضباب الذي يحيط به ويلفه، وهذا السبب هو إنه كان يتعمد التخفي والابتعاد عن الناس، وكان يأنس للبراري أكثر من أنسه للبشر، كما كان ميالا للوحدة، والميل للوحدة، كما يقول د. جمال المرزوقي لا يجعل له تلاميذ يحملون أفكاره، ودوام الارتحال يؤدي إلى جهل الناس به، وعدم التعرف إليه.

تأثير الأب

يقولون هذا الشبل من ذاك الأسد، وتنطبق هذه المقولة على جلال الدين الرومي وأبيه كل الانطباق.

كان جلال الدين الرومي من أسرة معروفة بالفضل والعلم، ويصل نسبه إلى سيدنا أبي بكر الصديق صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأول الخلفاء الراشدين...

كان اسم والد الرومي هو بهاء الدين وكان علماء عصره يلقبونه بسلطان العلماء، وكان معروفا بين الناس باسم بهاء الدين ولد.

وقد كان لهذا الأب اثر كبير في جلال الدين الرومي...

كان الأب عالما بالفقه والتصوف، كان يقوم بتدريس العلوم من الصبح إلى الظهر، وكان يشرح للتلاميذ حقائق التصوف عند صلاة العصر، وكان يلقي الخطب والمواعظ يوم الجمعة في المسجد، ويفتي في مسائل عويصة ويرشد قضاة عصره إلى مفاتيح القضايا الواردة عليهم، وكان لا يطلب بفتواه شيئا من المال...

باختصار... كان الأب معلما له حلقة علمية يحضرها كبار المثقفين في زمانه، وكان يسمح لكل وارد بدخول حلقته العلمية، وبعد فراغه من العلم والتدريس والفتوى وحل مشكلات الناس كان يتجه بالليل إلى صومعته حيث يذكر الله ويتهجد.

وقد اشتهر الأب بالتواضع الشديد بين علماء عصره، وهذا هو السبب في انه كان يخفي آثاره العلمية ويقول حين سُئل لماذا لا تكتب كتابا لتلاميذك:

ـ أنا لست أهلا للتأليف والتصنيف... أنا اعرف نفسي حق المعرفة.

رغم ذلك جمع تلاميذه بعض أوراقه وهو كتاب المعارف(باللغة الفارسية) وتأثر جلال الدين الرومي بكتاب أبيه، ونقل بعض أفكاره في كتاب المثنوي بعد تطويرها...

كانت مشكلة الأب كثرة تنقلاته بين البلاد مع زحف المغول،، ولم تكن تنقلاته هذه فرارا من المغول أو إيثارا للسلامة، إنما كانت انتقالا من وطن لا يساعدهم على نشر أفكارهم إلى وطن جديد ييسر لهم المقدرة على إصلاح الناس اكثر من قدرتهم في وطنهم الأصلي، او يمكنهم من تنبيه الناس إلى إخطار غزو المغول وتعبئة المشاعر ضدهم ودعوة القادرين إلى حمل السلاح دفاعا عن الإسلام .

فن المثنوي

يتبدى فن جلال الدين الرومي في كل كتبه الشعرية، وأولها المثنوي.. وهو كتاب يحتل مكانة فنية خاصة، ويعد أثرا من الآثار الأدبية الخالدة، حيث يرتفع فيه الشاعر إلى آفاق عالمية رفيعة..

والشاعر كما نعرف هو الإنسان الذي يفكر بالصور.. والمثنوي مليء بصور القصص التي حكاها الشاعر، وهي قصص لا تروى لذاتها، إنما هي تستهدف مقاصد فلسفية أو أهدافا تعليمية يحدث هذا بأسلوب صاف رقراق متدفق ينبئ عن موهبة خارقة فاض عليها الفيض الإلهي..

ومن فرط أهمية هذا الكتاب وإمتاعه لقارئه غلا فيه الناس، وبالغ بعضهم في تعظيمه حتى قال بعض الإيرانيين عنه إنه قرآن الفارسية، وتصور البعض أن الكتاب يعالج في ملحمته جميع المعارف، ويتناول بالبحث كل العلوم..

وهذا نظر سقيم لا يوافق عليه الدكتور محمد عبد السلام كفافي رحمه الله تعالى، فهو لا يحب أن يخلط بين ثقافة الشاعر التي تنعكس في إنتاجه الفني، وبين اعتباره صاحب علم بجميع المعارف، وهو يميل إلى اعتبار المثنوي أثرا فنيا قبل كل شيء.

تأمل قوله في المثنوي حول تغيرات الدنيا وتحولات الإنسان في كل لحظة:

يا رب قافلة وراءها قافلة تسير من العدم إلى الوجود، ففي الخريف تذهب آلاف الأغصان والأوراق منهزمة إلى بحار الموت بينما الغراب يرتدي السواد كالحزين وينوح على الخضرة في البستان ثم يجيء الأمر من سيد الأرض فيقول للعدم: ردّ ما أكلت أيها الموت الأسود.. رد ما أكلت من زروع وأعشاب وورق وحشائش.

فيا أخي.. اجعل عقلك معك لحظة واحدة.. إن بك في كل لحظة خريفا وربيعا.. وانظر بستان قلبك اخضر ريان نظرا.. حافلا ببراعم الورد والسرو والياسمين.

يبدأ الشاعر هنا من فكرة عامة هي تغير الدنيا في كل لحظة، وضرب لذلك مثلا بالربيع والخريف، ثم انتقل إلى دعوة الإنسان أن يتأمل نفسه، والنظر إلى ما يطرأ عليها من ازدهار يشبه الربيع أو انكماش يشبه الخريف.

موسيقى الشعر

تتلاحق الصور في شعر جلال الدين الرومي تلاحقا يشبه ما نسميه مونتاج السينما.. ويحس القارئ أنه أمام شعر له موسيقاه الخاصة..
ولقد كان جلال الدين الرومي يجيد العزف على بعض الآلات الموسيقية، وهو الذي توسع بإدخال الموسيقى في مجالس الصوفية، وكثيرا ما سمعه مقترنا بالإنشاد والأنغام، وقد تجلى أثر هذا الإحساس الموسيقي في شعره، فقد استطاع أن ينظم غزليات الديوان على أوزان عديدة بلغت خمساً وخمسين وزنا، بعضها كان من الأوزان والتنوع في الأنغام، شيء لا يرى النقاد له مثيلا عند غيره من الشعراء لا في الفارسية، ولا في غيرها من لغات الأمم الإسلامية كما يقول د.محمد كفافي رحمة الله تعالى، على أن أخطر ما في الشاعر هو هذه القدرة العجيبة على أن يتناول الموضوع المطروق فيجعل منه موضوعا جديدا وكأنه يعرضه على القارئ لأول مرة..
إن المستوى ينطوي على عديد من القصص.. بضع مئات من القصص، وقد استطاع الباحثون من أمثال نيكلسون وغيره من المستشرقين أن يردوا هذه القصص في أغلب الأحوال إلى أصول قديمة..

ولكننا إذا نظرنا إلى تلك الحكايات . كما وردت في مصادرها الأصلية . ثم نظرنا إليها عند الرومي، لوجدنا أنها قد تحولت تحولا كاملا، وتغيرت معالمها، وأصبحت حافلة بالمعاني الرائعة التي لم تخطر على بال مؤلف القصة الأصلي..

ننظر في قصة صغيرة من القصص المعروفة تناولها الرومي وصنع منها عملا فنيا ضخما.. تلك هي قصة الأرنب الذي صرع الأسد..

وردت هذه القصة في كليلة ودمنة.. وخلاصتها أن أسدا كان يعيش في غابة، وكان الأسد يفسد على بقية الحيوانات عيشتها بصيد يقتنصه منها كل يوم واتفقت وحوش الغابة وحيواناتها على أن يقدموا للأسد كل يوم ضحية تختار بطريق الاقتراع، ووقعت القرعة ذات يوم على أرنب، ورفض الأرنب أن يذهب إلى الأسد.. ثم ذهب إليه بعد الموعد بزمن طويل وكان الأسد جائعا وغاضبا في نفس الوقت..

ونجح الأرنب بذكائه وحيلته أن يضحك على الأسد ويخلص الغابة كلها منه.. كيف كان ذلك؟

قصة الأرنب والأسد

وقف الأرنب أمام الأسد وهو يرتعش في رداء الفرو الجميل الذي خلقه الله له.. وصرخ الأسد غاضبا:

. أين كنت كل هذا الوقت؟ لماذا تأخر طعامي اليوم؟

قال الأرنب: معذرة أيها الملك.. لقد اختارت الغابة لك اليوم أرنبا سمينا وكلفت بمرافقته إلى عرينك العظيم.. وسرنا في الطريق قادمين إليك.. وبينما نحن في الطريق اعترضنا أسد.. وأراد الأسد افتراس الأرنب السمين، ولكنني قلت له إن هذا طعام ملك هذه الغابة، ورفض الأسد ما قلته له وافترس الأرنب وهو يقول:

. ليس هناك ملك سواي لهذه الغابة..

استمع الأسد لما قاله الأرنب وغلت الدماء في عروقه ونهض ثائرا وهو يقول:

. دلّني على طريق هذا الأسد الدخيل الذي جاء ينازعني الملك وتقدم الأرنب وسار وراءه الأسد حتى وصلا إلى بئر تمتلئ بالمياه..

قال الأرنب وهو يشير إلى البئر:

. هنا اختبأ الأسد الدخيل بعد أن أكل طعام مولاي.. ونظر الأسد في البئر فرأى صورته فظن أنها صورة عدوه، فوثب إليه ليقاتله فسقط في البئر واستراحت الوحوش من شره..

أخذ الرومي هذه القصة القصيرة، وهي قصة يمكن حكايتها للأطفال، وجعل منها بناء شامخا، وهيكلا أدار حوله حوارات ممتعة عن القضاء والقدر، والسعي والتوكل، وغير ذلك من المسائل التي ينشط الذهن لمعرفة أسرارها الغامضة..

وهكذا يمضي الحوار بين الأسد والوحوش، ثم بين الأسد والأرنب ويمضي كل واحد في تأييد رأيه بالأمثال والحكايات التي ترجح كفة السعي والجهد على التواكل والتراخي..

ويلاحظ د. محمد دكفافي هذه المقدرة الفائقة لجلال الدين الرومي في فن الحوار، فهو لا يكاد يطرق موضوعا من الموضوعات حتى يعالجه في حوار يبين به وجهات النظر المختلفة، وينتهي منه إلى الرأي الذي يريد بيانه، وقد بلغت مقدرته في الحوار مستوى رفيعا، يرقى إلى مستوى الدراما المسرحية أو الأدب التمثيلي.

أمور بسيطة

الشاعر العظيم هو الذي يجعل من الأمور البسيطة التي تمر تحت أعيننا ولا نلتفت إليها موضوعا للشعر..

وهذا ما أجاده جلال الدين الرومي، وفعله دون جهد شاق من جانبه، تعاونه على ذلك موهبة خارقة. إن عبقريته الفنية تستطيع أن ترفع بعض الموضوعات من مستواها العادي أو التافه إلى مستويات فنية تجعلها جديرة بأن تقرأ، وتثير التأملات في النفس.

وليس هذا بغريب على مثل هذا الفنان الأصيل..

من أمثلة ذلك.. ما كتبه الشاعر عن البقول، وهي تطهى في القدر. إن الرومي يصورها وهي تتواثب من ألم النار، وهي تخاطب المرأة التي تقوم بالطهو، معاتبة لها، وهنا تنهرها المرأة قائلة إنني أغليك بالنار لا لأني أكرهك، ولكن لأني أريد أن أجعلك سائغة الطعم فتصبحين بذلك غذاء يختلط بروح الحياة، فمثل هذا العذاب لا يهبط بك .. لقد فصلت عن بستان الأرض، وستصبحين بذلك طعاما يدخل جسم الحي ..فيغدو غذاء وحيوية وفكرا.. لقد كنت عصارة نباتية، والآن تصبحين من أسد الغاب، لقد كنت جزءا من السحاب والشمس والكواكب، الآن تصبحين نفسا وحركة وحديثا وفكرا

.....

هنا نرى كيف يتخذ الشاعر من عمل معتاد ومتكرر، وهو طهو بعض البقول على النار، فإذا بهذا العمل المعتاد يتحول بين يديه إلى موضوع ينطلق منه لأبعد الآفاق.

أيضا يلاحظ النقاد كيف تكثر في المثنوي الحكم والأمثال التي يصوغها الشاعر من وحي تعاليمه الأخلاقية أو فلسفته الصوفية، وهذا يزيد شعره ثراء وحكمة..أيضا نجح الشاعر إلى أبعد الحدود في استخدام السخرية والتهكم لتحقيق أهدافه الفنية أو التعليمية.

لوحات الكاريكاتير

نجح جلال الدين الرومي إلى أبعد الحدود في استخدام السخرية لتحقيق أهدافه الفنية أو التعليمية.

وقد استطاع الرومي أن يرسم بالشعر لوحات تشبه لوحات الكاريكاتير، وفي الأبيات التالية يمكننا أن نرى كيف سخر من قصار النظر:

كانت ذبابة تقف على عود قش فوق بول حمار، وقد رفعت رأسها كربان السفينة

وقالت: إنني أسميهما بحرا وسفينة، وأنا فوقهما الربان البارع الحصيف الرأي

ومضت الذبابة تسير سفينتها على صفحة البحر، وقد بدا لها هذا القدر ماء لا يحد

لقد كان هذا الماء يبدو بلا حدود بالنسبة لها، فمن أين لها ذلك النظر الذي يراه على حقيقته

إن عالمها يمتد إلى المدى الذي يدركه بصرها، فعلى قدر العين يكون مدى بحرها

.....

يلاحظ النقاد الدارسون لأدب جلال الدين الرومي أنه كان متنوع الأساليب، وقد هدته سليقته . كما يقول د. محمد كفافي . إلى نظم الشعر بصور وأساليب متباينة تتلاءم مع عدد من المذاهب الفنية التي ظهرت خلال القرون، فعنده الشعر الذي يمكن أن يعد واقعيا، وعنده الشعر العاطفي والمثالي وعنده الشعر الرمزي، بل وعنده شعر اللاوعي، ولقد كان الصوفية هم أول من قالوا بأدب اللاوعي، فقد كانوا ينظمون الشعر في حالات الوجد الصوفي، وهي حالات الفناء عن الذات، كانوا يخرجون فيها عن العقل الواعي.

ومما هو جدير بالذكر أن الصوفية بقولهم بالإلهام والكشف قد فتحوا السبيل أمام ألوان جديدة من التفكير في طبيعة الأدب والفن، بعد أن ظلت فكرة المحاكاة التي قال بها أرسطو مسيطرة على مفاهيم النقد الأدبي قرونا عديدة، وسبق الصوفية بذلك فرانسيس بيكون الذي صنف المعرفة البشرية على أساس ملكات إنسانية ثلاث هي العقل والذاكرة والخيال، وجعل الخيال مصدرا للشعر فكان ذلك خروجا على مذهب المحاكاة الأرسطي. لنذكر مثالا على شعر الوجد الصوفي.. الذي يمكن أن يعتبر من شعر اللاوعي.

دار العشق

سنعثر على قصيدة من هذا الشعر المعتبر من شعر اللاوعي في ديوان شمس تبريز

يقول جلال الدين الرومي:

هذه الدار التي لا تفتر فيها الألحان.. سل ربها أي دار هذه؟

إن كانت الكعبة فما صورة الصنم هذه؟ وإن كانت دير المجوس فما هذا النور الإلهي؟

في هذه الدار كنز يضيق به العالم، وإنما هذه الدار وهذا السيد(رب الدار) فعل وذريعة.

لا تضع على الدار يدا فما هي إلا طلسم، ولا تكلم السيد فقد أفنى الليل سكرا.

تراب هذه الدار وقمامتها مسك وعنبر وعطر، وكل سطحها وبابها شعر وألحان.. فمن وجد سبيلا فيها فهو سلطان الأرض وسليمان الزمان.

أيها السيد.. أطل علينا من الشرفة، فإن في وجهك الجميل أمارة من الإقبال.

أقسم بروحك أن ما عدا رؤية وجهك، ولو كان ملك العالم . خيال وخرافة.

تحير البستان أي ورق وأي زهر، وولهت الطير أي شبك وأي حب. هذا سيد الفلك كالزهرة والقمر، وهذي دار العشق لا حد لها ولا نهاية.

.....

نعرف أن الصوفية جميعا . ومن بينهم جلال الدين الرومي . لهم تصور خاص في المحبة الإلهية، إنهم ينظرون إليها باعتبارها جوهر الوجود وكل ما عداها عرض زائل.. انظر كيف يناجي الشاعر محبوبه في الغزل الصوفي:

أيها الحبيب.. إني لم أر طربا في الكونين بدونك
لقد رأيت كثيرا من العجائب، ولكني لم أر عجبا مثلك
يقولون إن الاحتراق بالنار نصيب الكافر
ولم أر محروما من نارك سوى أبي لهب
ولكم وضعت أذن الروح على نافذة القلب
فسمعت كلاما كثيرا ولكنني لم أر شفتي

حنين إلى الأصل

يحفل المثنوي بقطع عالجت موضوع الإنسان، وأصله الإلهي، وكيف أن نفسه تظل في حنين دائم إلى هذا الأصل الذي جاءت منه، وكيف أنها تعاني في ذلك العالم المادي الذي احتبست فيه، ويبدأ كتاب المثنوي بالحديث عن الناي..

وهو يصف نغماته بأنها حنين إلى منبته الذي قطع منه.. قبل أن تتناوله يد البشر فتشكل منه تلك الآلة الموسيقية..

والناي هنا ليس سوى رمز للنفس البشرية، وما منبت الغاب إلا رمز لأصل تلك النفس وعالمها الأول..

وما حنين الناي إلا رمز لحنين تلك النفس البشرية إلى أصلها، يقول جلال الدين الرومي:

استمع للناي كيف يقص حكايته، فهو يشكو آلام الفراق قائلا: إنني منذ قطعت من منبت الغاب، والناس جميعا يبكون لبكائي..

إنني أنشد صدرا مزقه الفراق، حتى أشرح له ألم الاشتياق، فكل إنسان أقام بعيدا عن أصله.. فإنه يظل يبحث عن زمان وصله، لقد أصبحت أنوح في كل مجتمع وناد، وصرت قرينا للبائسين والسعداء، وقد ظن

كل إنسان أنه قد أصبح لي رفيقا، ولكن أحدا لم ينقب عما كمن في باطني من الأسرار..

وليس سري بعيدا عن نواحي، ولكن أين العين التي تبصر هذا النور، وأين الأذن التي تصل إلى السمع الذي تدرك به الأسرار.

.....

ورغم أن جلال الدين الرومي كغيره من الصوفية لا يحفل بالمباحث الكلامية، ولا يراها موصلة إلى معرفة يقينية، إلا أننا نراه يتناول في شعره جوانب من المسائل المعروفة في علم الكلام، والتي طال عليها الخلاف مثل مشكلة الجبر والاختيار.. هل الإنسان مسير أم مخير؟

كان رأي جلال الدين الرومي أن الإنسان له إرادة حرة، وأنه مسئول عن أعماله، وفي حوار بين مسلم ومجوسي حول القضاء والقدر أكد الرومي أن الإنسان حر الإرادة، ولولا حرية إرادته لما كانت كل هذه الأوامر والنواهي التي حفل بها القرآن، فليس من المعقول أن هذه الأوامر والنواحي توجه إلى أحجار لا إرادة لها.

مجد العبادة

كان جلال الدين الرومي ينحاز إلى العشق شأنه في ذلك شأن الصوفية، وإن كان الرومي يقوم بتعريف العشق تعريفا يخصه، إذ يجعل من العشق محركا أول لكل حركة، ويجعله سببا للارتقاء في مدارج الكمال، ويظهر من كلامه التشابه بينه وبين ابن سينا، كما يقول د. عناية الله الأفغاني.

والحق أن الصوفية يشربون جميعا من نهرين:

النهر الأول : قوله تعالى (وما خلقت الجن الإنس إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين).

أما النهر الثاني فهو قوله تعالى في آية الميثاق (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربكم قالوا: بلى شهدنا) هذا هو عهد الفطرة كما يقول العلماء..

أما الآيات التي تبرر خلق الله لجميع الخلائق، وتتحدث عن أسباب الخلق، وتربط هذا كله بالعبادة، فهي آيات نظر فيها الصوفية نظرة أعمق من غيرهم..

إنهم يعلمون أن الله سبحانه لا يزيد في ملكه عبادة العابدين، ولا ينقص من ملكه كفر الكافرين..

إنما يزيد الناس بالعبادة ارتقاء وسموا..

إذا كان المستفيد من العبادة هو الناس وبقية الخلائق، فهذا يعني أن الله خلق الخلق ليحسن إليهم..

يقول الحق تبارك وتعالى في الحديث القدسي: كان الإحسان قصدي من الخلق. ويقول سبحانه في الحديث القدسي: كنت كنزا مخفيا، فأردت أن أعرف(أي أردت أن أعطي) فخلقت الخلق، فبي عرفوني.

يرى العارفون بالله أن العبادة مجد منحة الله للبشر وبقية الخلائق، ومن ثم فإن ردهم على إحسان الله لهم أن يشكروه ويؤمنوا به، يقول الحق في القرآن الحكيم (ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم) وهذا يعني أن الإيمان والحمد هما خير وسيلة للنجاة من العذاب، أما القرب من الله تعالى فيحتاج إلى مجاهدات تبدأ بالحب وتنتهي بالفناء في الله.

يقول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه)

نور الإيمان

تتكشف الحقائق للصوفي بنور الإيمان وسر التوحيد.
يستوي في ذلك أن يكون الصوفي شاعرا مثل جلال الدين الرومي، أو مجددا ومجاهدا مثل بديع الزمان سعيد النورسي، أو حكيما فيلسوفا مثل محمد بن عبد الجبار النفري.
رغم الاختلافات بين ما أبدعوه خلال تجربتهم الروحية، إلا أن مفتاح الكشف يكمن في نور الإيمان دائما.
في كتابه الشعاعات وهو الجزء الرابع من رسائل النور يكتب بديع الزمان سعيد النورسي تحت عنوان المقام الأول فيقول:
"إن الجمال الإلهي والكمال الرباني يظهران في التوحيد وفي الوحدانية، ولولا التوحيد لظل ذلك الكنز الأزلي مخفيا
نعم.. إن الجمال الإلهي، وكماله الذي لا يحد، والحسن الرباني ومحاسنه التي لانهاية لها، والبهاء الرحماني وآلاءه التي لا تعد ولا تحصى، والكمال الصمداني وجماله الذي لا منتهى له، هذا كله لا يشاهَد إلا في مرآة التوحيد، بواسطة التوحيد ونور تجليات الأسماء الإلهية المتمركزة في ملامح الجزئيات الموجودة في أقصى نهايات شجرة الكائنات.."

ويمضي سعيد النورسي في تأملاته فيحدثنا تحت عنوان ثمرة التوحيد الثانية، عن التجربة التي ساقته لهذه الثمرة، فيقول:

"كنت أتأمل الحياة في يوم من أيام الربيع، وشاهدت الموجودات التي تملأ سطح الأرض وتسير قافلة إثر قافلة، ولاحظت هذه الموجودات خاصة الأحياء الصغيرة منها، إنها لا تكاد تظهر حتى تختفي، وهكذا تتعاقب مناظر الموت والزوال باستمرار وفي فعالية دائمة، ومست هذه المشاهد أوتار عواطفي وأثارت رقتي حتى دفعتني إلى البكاء، كان الألم يعتصر قلبي عليها، وتساءلت لماذا جاءت هذه المخلوقات إلى عالمنا؟ ولماذا ترحل عنه بعد أن تشاهد هذا المهرجان الكوني العظيم؟ من أين يأتي هذا الفناء والزوال ضمن الدورات والتجوال المحير للعقول؟

أسئلة كانت تدفعه دفعا في قلب المأساة وتظهر له جانبا من جوانبها، ثم استطاع أخيرا بنور الإيمان وسر التوحيد أن يقلب أحزانه إلى أفراح، حيث رأى أن كل ذي حياة هو قصيدة إلهية صغيرة تحمل آلاف المعاني العميقة، وهو لوحة تعلن عن حكمته تعالى .

إنقاذ الإيمان

كانت الحرب في عصر جلال الدين الرومي ضد الإسلام تأخذ شكل المعارك العسكرية..(غزو المغول).

وكانت الحرب ضد الإسلام في عصر بديع الزمان سعيد النورسي تأخذ شكلا مختلفا.. إن الذين فشلوا في المعارك العسكرية ضد الإسلام نجحوا في مجال الغزو الفكري الذي استهدف العقيدة في حياة المسلمين، وهكذا هبت عواصف التغريب تقتلع الإيمان من القلوب، وتؤسس عقائد جديدة تقوم على المادية الجافة، وتتنافى مع نداوة الإيمان، وتستبعد الأخلاق الدينية التي تنبع من الروح..

من هنا جاءت صيحة بديع الزمان سعيد النورسي دعوة إلى انقلاب روحي أحسه هو في نفسه أولا، وهكذا مات سعيد القديم وولد سعيد الجديد.. وأحس سعيد الجديد بأن العالم الإسلامي في حاجة إلى مثل هذا الانقلاب الروحي..

كان هذا الانقلاب عنده يقوم على أساس التفكر لا العنف، وكان يقوم على أساس إنقاذ الإيمان، لأن إنقاذ الإيمان في هذا العصر هو أعظم إحسان يمكن أن يقدم إلى هذا الزمان كما يقول الدكتور عبد المعطي بيومي.

كتب سعيد النورسي يقول:" إن أعظم إحسان أعده في هذا الزمان، وأخطر وظيفة هي إنقاذ الإنسان لإيمانه، والسعي لإمداد إيمان الآخرين بالقوة". وكان يرى أن إنقاذ الإيمان إنما يتحقق بإثبات حقائق الإيمان إثباتا ساطعا.. لذلك راح النورسي يهتم بإثبات هذه الحقائق وتوضيحها توضيحا يقوم على تحريك العقل والقلب معا لفهمها وإدراك أسرارها..

وفي الكلمة العاشرة مثلا تحدث عن الحشر، وذكر أن كلمته تعلّم عوام الناس والصبيان حقائق لم يستطع الفيلسوف ابن سينا أن يبلغها بذكائه واعترف بعجزه عن فهمها قائلا: "ان الحشر ليس على مقاييس عقلية" .

وفي المكتوب العشرين الذي خصصه بشرح قوله تعالى (وهو على كل شي ء قدير) كشف معالم القدرة الإلهية المحيطة بكل شيء..

ويقول النورسي إنه ما كان له أن تتكشف له هذه الحقائق الإيمانية إلا بأثر الإعجاز المعنوي للقرآن الكريم، وبجلوة من جلوات العناية الربانية.

صـعب

عاش محمد بن عبد الجبار النفري في القرن الهجري الرابع، ونحن نعرف مثلا أنه ولد في قرية نِفّر من أعمال العراق..

ونعرف أنه لم يكن من هواة الكتابة.. فقد كان يقول الحكمة شفاها ولا يهتم بتسجيلها على الورق..

ونعرف أنه كان رجلا غامضا، وربما نبع غموضه من أسفاره الكثيرة، فقد كان دائم الترحال ولا يستقر في مكان.. ولعل هذا التنقل الكثير كان سببا في جهل الناس له..

نحن لا نعرف مثلا تاريخ مولده ونشأته العلمية وأساتذته، كما أننا لا نعرف بالضبط تاريخ وفاته.. ويقال أنه عاش في مصر ودفن في أرضها.. ويبدو أنه كان يتعمد الاختفاء وينفر من الشهرة..

وقد ترك النفري وراءه كتابا هو كتاب المواقف والمخاطبات.. ولي مع هذا الكتاب قصة..

منذ عشرين عاما أو نحو ذلك وقعت على نسخة من الكتاب طبعت بمطبعة دار الكتب المصرية سنة١٩٣٤، وقد أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثني ببغداد، أما ناشره الذي عني بتصميمه فهو آرثر يوحنا اربري وهو محاضر بالجامعة المصرية، وكان زميلا لكلية بمبروك في

جامعة كمبردج سابقا، وتصورت بعد حصولي على هذه النسخة انني سأمضي ليلة طيبة في قراءة الكتاب أو ليلتين على الأكثر..
ولكنني فوجئت بلغة الكتاب ومضمونه في نفس الوقت.. كنت أقرأ بالسرعة التي أقرأ بها الكتب الأخرى، فوجدت نفسي كمن يقرأ كتابا بالهيروغليفية..
لم أفهم كثيرا مما قرأته.. وأغضبني على المستوى الشخصي أن أفشل في قراءة كتاب مكتوب باللغة العربية.. وتركته يومين ثم عدت إليه.. ويمكن القول أنني قرأته في عشر سنوات، وبقيت أجزاء فيه خافية على فهمي، وهناك صعوبة في فهم النفري، لأن أسلوبه رمزي كما هو الشائع في الأساليب الصوفية عموما، وإن كان يمتاز بصياغته الرفيعة البليغة المركزة المشحونة بمشاعر حية، ثم سمعت أن باحثا سيناقش في جامعة القاهرة رسالة لنيل درجة الدكتوراه عن النفري فأسرعت بحضور المناقشة، وحصل الدكتور جمال المرزوقي على الدكتوراه وطبعت دار الزهراء للإعلام العربي رسالته في كتاب.. ونجح هذا الكتاب أن يسد الثغرات في فهمي وأعانني على فهم أفضل.

المواقف والمخاطبات

يطلعنا النفري في كتابه المواقف والمخاطبات على مذهب صوفي جديد إلى حد كبير.. وهو مذهب يقوم على ما يسمى بالوقفة، التي هي نهاية وتتويج لسلسلة المجاهدات التي تأخذ شكل سلم تصاعدي يبدأ من الجهل، ثم يترقى السالك إلى العلم، ثم إلى المعرفة، ثم إلى الوقفة، وأخيرا ينتهي أمر المجاهد أو السالك أو الواقف . على حد تعبير النفري . إلى الجهل مرة أخرى.. ولكن شتان ما بين جهل حقيقي وجهل مجازي.. والوقفة عند النفري تعني أن ينفصل الصوفي تماما عن السوى (كل ما سوى الله) ويفنى عن الكونية، وذلك لغلبة الحقيقة عليه، وفي هذا الفناء نزول السلام بالكلية، وترتفع الإثنينية التي بين الله والعالم، فلا يشهد الصوفي إلا الأحدية، لأنه فني عن نفسه، وعن كل شئ في الوجود لكونه مستغرقا في التوحيد.

ويعترف الدكتور جمال أحمد المرزوقي في كتابه عن النفري بأن هناك صعوبة في فهم النفري بسبب أسلوبه الرمزي الغامض، وهو أسلوب يحمل في طياته إشارات غير واضحة، واعترافات في أنصاف كلمات، ومناجاة سرية تكاد تكون مصوغة على حد تعبير الأب بول نويا..

ويبدو أن النفري قد تلقى الأمر بألاّ يبوح للآخرين بما يقع له من تجارب، ومن هنا جاءت لغته مجازية تماما.. وفيها الكثير من الجرأة والمغامرة في النحت والاشتقاق الذي يصل إلى حد الإغراب، وترتب على ذلك أن أصبح أسلوب النفري رمزيا مغرقا في رمزيته، الأمر الذي يخرجنا عن اللسان المعتاد والمنطق المألوف، ويوقفنا على هوة هي حسب قول النفري برزخ فيه قبر العقل وفيه قبور الأشياء.

وبالتالي فشرح نص النفري يصبح مهمة فيها الكثير من المخاطرة، وإن كان البحث عن الحكمة يستحق المخاطرة..

ويبدأ كتاب المواقف بقول النفري: أوقفني في كذا وقال لي. وتبدأ المخاطبات بقوله: . يا عبد..

وأوقفني معناه أن الله أيقظ قابليتي لتلقي التجلي، وقال لي ما معناه أنه عرفني بأن رفع حجابي فعرفت فكأنه قال لي.. ويتصور النفري أن الله أوقفه وحدثه، ولسنا أمام دعوى نبوة، وإنما هي لغة الصوفية فبدلا من أن يقول الواحد منهم انقدح في ذهني هذا الخاطر، يقول:

قال لي ربي إيمانا منه بأن نبع الحقيقة وملهمها هو الله سبحانه.

الفناء في التوحيد

أثار كتاب المواقف والمخاطبات عند نشره في مصر سنة١٩٣٥ التفات الدكتور عبد الوهاب عزام رحمه الله تعالى، فكتب عنه في مجلة الرسالة مقالا قال فيه:

إن هذا الكتاب بدع من كتب التصوف، وانه من الأدب الصوفي الذي لا يعرف نظيره..

كما التفت إليه في الستينات من هذا القرن الشاعر اللبناني أدونيس(اسمه على أحمد سعيد).

وتوجد طبعة حديثة لكتاب المواقف والمخاطبات قدّم لها وعلق عليها الدكتور عبدالقادر محمود..

ويرى الدكتور جمال المرزوقي في كتابه تجريد التوحيد، أن النفري قد أودع في المواقف والمخاطبات خلاصة آرائه في التصوف، ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن المواقف والمخاطبات تستوعب مذهبه الصوفي بأسره، وأن كل ما جاء في مصنفاته الأخرى ليس إلا شرحا وتفصيلا لما احتوته..

ويتمثل مذهبه الصوفي في الفناء في التوحيد.

إن الوقفة عنده تعني أن ينفصل الصوفي تماما عن كل ما سوى الله، ويفنى عن إحساسه بالكون لغلبة شهود الحق عليه، وبالتالي يصل بمجاهداته إلى ألا يشهد وجودا غير الله عز وجل..

ينمحي الكون وتذوب الذات ولا يبقى سوى الله وحده، ويمكن القول إن النفري وصل إلى مقام تجريد التوحيد، وهو مقام لا نعرف صوفيا آخر وصل إليه وبلغ هذه الآفاق التي بلغها النفري..

ولقد كانت قضية القائلين من الصوفية بالحلول أو الاتحاد مع الخالق قضية تصادم التوحيد وتتعارض مع الكتاب والسنة.. من هنا نرى النفري ينفي عن نفسه القول بالحلول أو الاتحاد بين الخالق والمخلوق.. وحول هذا المعنى يقول:

وقال لي: ما أنا في شئ، ولا خالطت شيئا، ولا حللت في شئ، ولا أنا من شئ، ولا من ولا عن ولا كيف، ولا ما يقال، أنا أنا، أحد فرد صمد وحدي، أظهرت كل شئ ولا مظهر إلا أنا.

ويقول النفري مناجيا ربه عز وعلا: إلهي.. سبحانك أنت فلا أشباه تماثلك، ولا أمثال تشاكلك ولا شواكل تجانسك..

ليس كمثله شئ.

فيض إلهي

لم يقل النفري مثل الحلاج بحلول اللاهوت في الناسوت، ولم يقل أيضا بالإتحاد بالله، كما قال البسطامي قبل الحلاج، وإنما عاش وحدة الشهود في كل خطراته، وتأملاته الصوفيه. وكان الإسلام السني واضحا في قلبه، وجوارحه، يقول النفري في موقف الإسلام :

أوقفني في الإسلام وقال لي: هو ديني فلا تبتغ سواه فإني لا أقبل..

وقال لي: هو أن تسلم لي بما أحكم لك، وما أحكم عليك، فلا تعارضني برأيك، ولا تطلب على حقي دليلا من قبل نفسك، فإن نفسك لا تدلك على حقي أبدا..

وقال لي: اتبع ولا تبتدع، وإذا قلت لك أن هذا لك تقول هذا لي، وإذا قلت لك أن هذا لي تقول أن هذا لك، وتسمع قولي وتسلك طريقي، وقولي كلامي، وطريقي أحكامي، وقولك تحيرك وطريقك تحكمك.

يتصور النفري أن الله أوقفه في موقف ما، وخاطبه وتحدث إليه..

وقد كانت تجاربه الروحية من العمق والنفاذ، بحيث تحولت بعده إلى هذه العبارات الحكيمة المدهشة التي كان يقولها النفري وهو يسيح في الأرض.

ولقد لفت النفري نظر الصوفيين البارزين، ومنهم محيي الدين بن عربي، فقد ذكره في خمسة مواضع من كتابه الفتوحات المكية، وقال عنه كلاما طيبا، ووصف كتابه بأنه كتاب شريف يحتوي على علوم المقامات.

أيضا اهتم به عفيف الدين التلمساني، وهو صوفي كبير، وشرح مواقفه، وقال فيها:

والله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الموصوف بالأسماء الحسنى والصفات العلا، ما رأيت في مكتوب، ولا سمعت في مسموع منذ أكرمني الله تعالى بالانتماء إلى هذه الطائفة(يقصد طائفة الصوفية) أفصح عبارة عن التجليات التي ترد في المواقف والمخاطبات، وإني أعتقد أن قدرة البشر تعجز عن هذه العبارات، وإنما هي فيض إلهي فسبحان الوهاب.

موقف العز

يبدأ كتاب المواقف والمخاطبات بموقف العز

يقول النفري: أوقفني في العز وقال لي:

لا يستقل به من دوني بشيء، ولا يصلح من دوني لشيء... وأنا العزيز الذي لا تستطاع مجاورته، ولا ترام مداومته.. أظهرت الظاهر وأنا اظهر منه، فما يدركني قربه ولا يهتدي إلى وجوده، وأخفيت الباطن وأنا أخفى منه فما يقوم على دليله ولا يصح إلى سبيله.

وقال لي: لولاي ما أبصرت العيون مناظرها، ولا رجعت الأسماع بمسامعها

وقال لي: لو نطق ناطق العز لصمتت نواطق كل وصف، ورجعت إلى العدم مبالغ كل حرف.

بعد موقف العز... وقد اخترنا جزءا منه، يدلف النفري إلى موقف القرب...

يقول أوقفني في القرب وقال لي:

. ما مني شيء أبعد من شيء ولا مني شيء أقرب من شيء، إلا على حكم إثباتي له في القرب والبعد.

وقال لي: البعد تعرفه بالقرب، والقرب تعرفه بالوجود، وأنا الذي لا يرومه القرب ولا ينتهي إليه الوجود.

وقال لي: لا بعدي عرفت ولا قربي عرفت ولا وصفي كما وصفي عرفت.

وقال لي: أنا القريب لا كقرب الشيء من الشيء، وأنا البعيد لا كبعد الشيء من الشيء.

وقال لي: القرب الذي تعرفه مسافة، والبعد الذي تعرفه مسافة، وأنا القريب البعيد بلا مسافة.

وقال لي: أنا اقرب إلى اللسان من نطقه إذا نطق، فمن شهدني لم يذكر، ومن ذكرني لم يشهد.

وقال لي: تعرفت إليك وما عرفتني، ذلك هو البعد، رآني قلبك وما رآني، ذلك هو البعد.

وقال لي: تجدني ولا تجدني، ذلك هو البعد، تصفني ولا تدركني بصفتي، ذلك هو البعد، تسمع خطابي لك من قلبك وهو مني، ذلك هو البعد، تراك وأنا اقرب إليه من رؤيتك، ذلك هو البعد.. وهكذا تمضي المواقف والمخاطبات.

موقف البحر

يفضل بعض الصوفية أن يتكلموا عن تجاربهم الروحية وإبداعات فنهم، سواء كان نثرا أو شعرا.

ويفضل البعض كتمان التجربة وعدم الحديث عنها أمام الناس، ونحن نعرف قول الصوفي القديم أنا إن تكلمت احترقت.. وهي إشارة إلى ما يلقاه الصوفية حين يصرحون ولا يكتمون.. ولقد كان النفري ينتمي إلى هذا الصنف الأخير..

لقد ألقي في روعه أنه تلقى الأمر بأن يخفي عن الآخرين ما يجنيه من تجربته..

وإلى ذلك يشير بقوله:

يا عبد لا إذن لك، ثم لا إذن لك، ثم سبعون مرة لا إذن لك أن تصف كيف تراني، ولا كيف تدخل إلى خزانتي، ولا كيف تأخذ منها خواتمي بقدرتي، ولا كيف تقتبس من الحروف حرفا بعزة جبروتي..

وهذا الكلام يعني أنه غير مأذون بأن يتكلم، فإذا تكلم فبالإشارة لا بالتصريح..

يقول النفري في موقف البحر:

أوقفني في البحر فرأيت المراكب تغرق، والألواح تسلم، ثم غرقت الألواح، وقال لي: لا يسلم من ركب.

وقال لي: خاطر من ألقى نفسه ولم يركب.

وقال لي: هلك من ركب وما خاطر.

وقال لي: في المخاطرة جزء من النجاة، وجاء الموج فرفع ما تحته وساح على الشاطئ..

وقال لي: لا تركب البحر فأحجبك بالآلة، ولا تلق بنفسك فيه فأحجبك به.

وقال لي: في البحر حدود فأيها يقلك.

وقال لي: إذا وهبت نفسك للبحر فغرقت فيه كنت كدابة من دوابه.

وقال لي: غششتك إن دللتك على سواي.

وقال لي: إن هلكت في سواي كنت لما هلكت فيه.

وقال لي: الدنيا لمن صرفته عنها، وصرفتها عنه، والآخرة لمن أقبلت بها إليه، وأقبلت به علي.

يرمز البحر عند النفري إلى الدنيا، وهو يريد أن يقول إن السلامة هي موهبة وليست كسبا للعبد.

شرح النص

يشرح التلمساني هذا النص الذي يسميه النفري موقف البحر فيقول:
إن البحر رمز للدنيا بما فيها من مجاهدات ورياضات يختارها السالك في رحلته إلى الله عز وعلا... وهو يشير هنا إلى سؤال: أي الأمرين يفضل في الوصول إلى الله تعالى.. هل يسلك المرء بعلمه أم يسلك بما يحمله قلبه؟.
إن النفري يرجح السلوك بالقلب..
وقوله: رأيت المراكب تغرق، فالمعروف أن المراكب هي ما يتخذ طلبا للنجاة.
فإذا غرقت المراكب هلك الراكب، وهذه إشارة إلى أن السلامة موهبة، وليست كسبا يعتمد على الأسباب..
ومعنى قوله ورأيت الألواح تسلم أي أن راكب الألواح أقرب إلى السلامة لأن راكب الألواح في هذا البحر لم يعتمد على الأسباب اعتمادا كليا، لأن الألواح أسباب ضعيفة فكأن صاحبها اعتمد على الحق تعالى لا عليها، ومعنى وغرقت الألواح أي غرقت تلك الأسباب أيضا، ومعنى قوله: لا يسلم من ركب أي: لا يصل من اعتمد في طريقه على سبب.. طبعا مفهوم هنا أن النفري لا يتحدث عن السلوك

في الدنيا، والأخذ بالأسباب فيها، فهذا كله مطلوب للحياة الإنسانية..إنما يتحدث النفري عن تجربة الرحلة إلى الله..هل يعتمد فيها الإنسان على العبادة؟

هل يعتمد على العلم؟ هل يعتمد على المعرفة، أم يعتمد على صفاء قلبه وتجريده لتوحيد الواحد الأحد؟

إن الأسباب حجاب في هذه المنطقة أو هذا المجال، إن النفري يقول:

لا تركب البحر فأحجبك بالآلة أي أحجبك باعتمادك على غيري.

وقال لي: غششتك إن دللتك على سواي

هذه عبارة ذات أبعاد عميقة.. وهي عبارة تنهي عن الالتفات إلى كل ما سوى الله سبحانه..

إن قلب الصوفي إذا كان صوفيا حقا، لا يحمل إلا الله تبارك وتعالى، ولا يرى سواه، ولا يلتفت لغيره..

هذه صفة قلوب الصوفية.

العبادة الوجهية

يقول د. جمال المرزوقي في كتابه تجريد التوحيد للنفري إن أهم ما يميز مذهب النفري في التصوف هو فكرة الفناء عن شهود السوى، ولا نكون مغالين إذا قلنا إن هذه الفكرة هي أساس مذهبه من بدايته إلى نهايته، وللفناء معنيان عند النفري:

إنه يشير عنده إلى فناء السالك عن أفعاله وإرادته، وبقائه بأفعال الله وإرادته، فيفنى السالك عن رؤية أفعاله بقيام الله له في ذلك، وهذا هو الفناء عن إرادة السوى.

ويستخدم النفري الفناء بمعنى آخر يشيع في أقواله هو فناء السالك عن شهود السوى أو الأغيار (كل ما سوى الله) والبقاء بالله وحده.

ويعني الفناء عن إرادة السوى ضرورة الإعراض عن العمل وعدم الاعتداد به، ونفي وجود الإرادة الإنسانية والإيمان بالقدر.

ويقسم النفري العابدين إلى قسمين.. أهل العلم الذين يعبدون الله خوفا من ناره وطمعا في جنته.. والمحبون(أهل العبادة الخالصة) الذين يعبدون الله تعالى لوجهه الكريم، لا خوفا ولا طمعا، ويسميهم أهل العبادة الوجهية.. وحول هذا المعنى يقول النفري:

وقال لي: الذي يفهم عني يريد بعبادته وجهي، والذي يفهم عن حقي يعبدني من أجل خوفي، والذي يفهم عن نعمتي يعبدني رغبة لما عندي نعرف أن العبد أجير من يعمل له، فإذا كان يقصد بعمله وجه الله تبارك وتعالى فهو أجير الله، وإن كان يقصد بعمله الخوف من النار والطمع في الجنة فهو أجير ما يعمل من أجره..

يقول النفري:

وقال لي: إنما تأخذ أجرك ممن أصبحت له أجيرا، إن عملت لي من أجلي فذاك لي، وإن عملت لي من أجل غيري فذاك لغيري.

وقال لي: إن كنت أجير العلم أعطاك الثواب العلم، وإن كنت أجير المعرفة أعطتك السكينة.

وقال لي: كن أجيري أرفعك فوق العلم، فترى أين يبلغ العلم وترى أين ترسخ المعرفة، فلا يسعك المبلغ، ولا يستطيعك الرسوخ.

يقول النفري عن مكانة أهل العبادة الوجهية عند الله تعالى: أهل العبادة الوجهية أهل خلتي، أهل الشفاعة عندي، أهل زيارتي.

المماليك والأحرار

يؤمن النفري بضرورة التمسك بالعبادات، ولكنه يؤمن بالدرجة نفسها بضرورة عدم الاعتماد عليها أو الاعتداد بها في الوصول إلى الله تعالى، وينبغي على السالك إلى الله تعالى ألا يعتمد على حسناته، وما قدم من أعمال صالحة، لأن العمل قد يكون حجابا. كما أن الأعمال الصالحة قد تتحول إلى ألواح غارقة لو شابها الرياء.

على العبد أن يتوكل على الله وحده، باعتباره المتفضل المنعم بالحسنات عليه، يقول النفري في هذا المعنى:

وقال لي: أتدري كيف تلقاني وحدك، أن ترى هدايتي لك بفضلي، لا أن ترى عملك، وأن ترى عفوي لا أن ترى عملك.

وما يقوله النفري هنا موافق لما قاله ابن عطاء الله السكندري حين قال:

لا تفرحك الطاعة إذا برزت منك، وافرح بها لأنها برزت من الله إليك.

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يدخل الجنة أحد بعمله، قيل ولا أنت يا رسول الله، قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته.

ويقول النفري في ذلك:

يا عبد.. لا تكن بالأعمال فتقف بك، ولا بالأحوال فتحول بك.

يا عبد.. لا تكن بالأسباب فتتقطع بك، ولاتكن فتتفرق عنك.
يري الصوفية أن الفاعل الحقيقي هو الله، بل إنهم يرون ألاّ فاعل مع الله، بمعنى أنه لا وجود لغيره إلا في الوهم.
يقول النفري في موقف الموت:
اوقفني في الموت فرأيت الأشياء كلها سيئات، ورأيت كل شيء لا يقدر على شيء، ورأيت الملكوت خداعا، وناديت يا عملي فلم يجبني، وناديت يا معرفة فلم تجبني، ورأيت كل شيء قد أسلمني ورأيت كل خليقة قد هربت مني، وبقيت وحدي، وجاءني العمل فرأيت فيه الوهم الخفي فما نفعني إلا رحمة ربي..
يؤمن النفري بالإتجاه القائل بالجبر، ويؤمن معظم الصوفية بذلك، وليس معنى هذا أنهم بلا إرادة، وإنما يعني أنهم تنازلوا عن إرادتهم لإرادة الحق، واختاروا أن يكونوا مجبورين.
يقول النفري: إن المماليك في الجنة والأحرار في النار. ويقصد بالمماليك هنا من تنازل عن إرادته لإرادة الله، أما الأحرار فلم يفعلوا ذلك.

الوقفة

يميل النفري إلى الإتجاه القائل بالجبر، وهو يرى أن الفعل ينسب مجازا إلى الإنسان، وحقيقة إلى الله تعالى، وأن الإنسان لا إرادة له بالقياس إلى إرادة الله، وهذا يعني في عالم السلوك فناء السالك عن إرادته وبقاءه بإرادة الله سبحانه...

وهذا ما يتفق فيه النفري مع بقية الصوفية، ولكنه يتميز عن كل من سبقوه بتشريحه لأعلى درجات الفناء، وتسميته لها بالوقفة، وتسميته للفاني بالواقف.. وهذا غاية الغايات عنده، أن يصل السالك إلى الوقفة.. والوقفة عند النفري تعني أن ينفصل الصوفي تماما عن السوى. ويعبر النفري عن هذا الفناء الكامل بقوله:

ياعبد.. اذا أقمت عندي جزت الكونية، فما أتاك فلن تفرح به، وما فاتك فلن تأسى عليه.

ويعلق أربري على ذلك قائلا: إن في عبارة النفري جزت الكونية تعبيرا عن الفناء الكامل عند النفري.

لماذا؟ لأن الوقفة تمحو الصور وتفني الرسوم.. يقول النفري وقال لي: ليس في الوقفة ثبت ولا محو ولا قول ولا فعل ولا علم ولا

جهل فالثبت صور، والمحو صور، والأقوال صور، والأفعال صور، والعلوم والجهالات صور، والوقفة تمحو الصور وتفني الرسوم..

وصاحب مقام الوقفة خارج عن الحرف، والحرف عند النفري كما يقول د. جمال المرزوقي يعني كل ذي صورة، سواء كانت الصورة روحانية أو جسمانية ، وكل ما سوى الباري تعالى حرف، فإذا خرج السالك عن الحروف والصور وبلغ هذا المقام كان الحق في شهوده.. عندئذ يدعو الصوفي فيستجاب له، إلى هذا المعنى يشير النفري بقوله.

وقال لي: إذا خرجت عن الحروف خرجت عن الأسماء، وإذا خرجت عن الأسماء خرجت عن المسميات، وإذا خرجت عن المسميات خرجت عن كل ما بدا، وإذا خرجت عن كل ما بدا قلت فسمعت، ودعوت، فأجبت.

والوقفة تعني عند النفري إماتة السالك عن السوى وفناءه بالله تعالى، وهنا يشهد الواقف أن العمل عمل الله، والمعرفة معرفته، والعلم علمه، فلا ينسب لنفسه عملا ولا علما ولا معرفة، إذ هو محو في حضور مشهوده عز وعلا، لا نعت له ولا تسمية.

المحتويات

الشيخ سعيد النورسي ٥
بطاقة شخصية..... ٧
بدايته ٩
فهمه للحب ١٣
بعيدا عن الغلو ١٥
اندفاع الشباب..... ١٧
مَن المجنون فينا؟ ١٩
أسباب التخلف..... ٢١
مواقف الرجل ٢٣
موقفه من الاستبداد ٢٥
الحرية والشريعة ٢٧
تجارب الحرب..... ٢٩
أحزان الغربة..... ٣٣
هروب من الأسر ٣٥
خواطر نفس..... ٣٧
المولد الجديد..... ٣٩
الصحوة الروحية..... ٤١

صراع داخلي ٤٣
أنواع من الدنيا..... ٤٥
لوحتان ٤٧
طريقه إلى الله.....٤٩
أول اصطدام ٥١
الرسالة ٥٣
الشرق والغرب.....٥٥
إنقاذ الإيمان..... ٥٧
الشيطان والسياسة ٥٩
ناقوس خطر..... ٦١
رسائل النور ٦٣
مطاردات وشكوك ٦٥
أخيرا حكمت المحكمة ٦٧
الرحيل الأخير ٦٩
الفرسان الثلاثة..... ٧١
ماذا ترك النورسي ٧٣
إبداع الرومي ٧٥
كنز النِفّري ٧٧
عصر النورسي ٧٩

عصر الرومي ٨١
عصر النفري ٨٣
قصة حياة الرومي ٨٥
أستاذ الرومي ٨٧
قصة حياة النورسي والنفري ٨٩
تأثير الأب ٩١
فن المثنوي ٩٣
موسيقى الشعر ٩٥
قصة الأرنب والأسد ٩٧
أمور بسيطة ٩٩
لوحات الكاريكاتير ١٠١
دار العشق ١٠٣
حنين إلى الأصل ١٠٥
مجد العبادة ١٠٧
نور الإيمان ١٠٩
إنقاذ الإيمان ١١١
صعب ١١٣
المواقف والمخاطبات ١١٥
الفناء في التوحيد ١١٧

فيض إلهي ١١٩
موقف العز ١٢١
موقف البحر ١٢٣
شرح النص ١٢٥
العبادة الوجهية ١٢٧
المماليك والأحرار ١٢٩
الوقفة ١٣١

هذا الكتاب

لو أن إنسانا بعث إليك برسالة ..

ماذا يكون موقفك منها ؟..

إن قراءة الرسالة هى الموقف الأول الذى يواجه متلقيها ..

إذا كانت هذه الرسالة تنبهك إلى خطرشديد تواجهه وترسم لك خطة لهزيمة المخاوف والأخطار والنجاة منها ، فماذا يكون احتفالك بها ؟..

هذا هو شأن رسائل النور ..

إن الرسائل على المستوى الشخصى تعاون الإنسان فى صراعه ضد نفسه .

وعلى المستوى العام هى جيش من الكلمات المضيئة التى تصد غارة على شعب من شعوب العالم الإسلامى بهدف تحويله عن حضارته ودينه ..

وهذا أدعى إلى فهم الرسالة وقراءتها باهتمام وتركيز ..

وقد اختار بديع الزمان سعيد النورسى شكل الرسائل ليعبر به عن أفكاره وتأملاته وسبحاته فى معانى الآيات القرآنية .

وبهذا الاختيار ضمن أن تظل الرسائل موضع اهتمام الناس واحتفالهم ، طالما أنها تنبههم إلى الخطر، وترسم لهم طريق السلامة .

والحق أن النورسى كان نسيجا متفرداً ، وكان صاحب شخصية متعددة الجوانب ، فهو جندى مجاهد ، وهو رجل يغوص فى أعماق الأشياء ويتأمل إعجاز الخالق فيها ، وهو صوفى إذا حضر الصوفية ، وهو مقاتل ومجاهد إذا حضرت الجيوش، وهو قائد الحرب إذا ادلهمت المواقف ..

وهذا الكتاب هو محاولة للاقتراب من النورسى، وقد حرصت فيه على تقديم النورسى خلال مقارنته ببعض الصوفية الكبار .. مثل جلال الدين الرومى ، ومحمد بن عبد الجبار النفرى العراقى ، والتوحيدى .

لست أزعم أن الكتاب دراسة نقدية ، وانما هو رحلة فى عالم النورسى ، وتأملات فى فكره وجهاده ، ومحاولة لبيان قيمته فى عصر توشك الأمم أن تتداعى علينا كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها .

أحمد بهجت

ملتزم التوزيع : شركة سوزلر للنشر - فرع القاهرة

٢/٣٠ شارع الإمام أبو حنيفة - (خلف مصر والسودان) - الحى السابع - مدينة نصر - ت ٤٠٢٤٦٩٩